جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

صورة الشخصية في أحاديث كان فيمن كان قبلكم بين اللازمة السردية والأبعاد التكوينية دراسة بلاغية في الصحيحين

إعداد

د/ إسماعيل عكاشة محمد سيد أحمد

مدرس في قسم البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بالمنصورة
جامعة الأزهر

(العدد الخامس والثلاثون)
(الإصدار الثاني .. أكتوبر)
(١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م)

علمية- محكمة- نصف سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

صورة الشخصية في أحاديث كان فيمن كان قبلكم دراسة بلاغية في الصحيحين.

إسماعيل عكاشة محمد سيد أحمد

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، المنصورة ، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.

البريد الالكتروني: ismaeilokasha.32@azhar.edu.eg

الملخص:

القصص النبوي فرع من دوحة البلاغة النبوية التي أغرت الباحثين في الميدان البلاغي عبر مختلف العصور بتفيئ ظلالها واقتطاف ثمارها؛ حيث سعدت المكتبة البلاغية بالعديد من التصانيف التي تكشف عن بلاغة الرسول الكريم، وقد عمد البحث إلى فرع من فروع تلك الدوحة المباركة وهو القصص التاريخي المفتتح بعبارة (كان فيمن كان قبلكم) ففتش في رحابه المبارك عن صورة الشخصية وبلاغة البيان النبوي في تقديمها، وفي سبيل تحقيق تلك الغاية عمد البحث إلى دراسة اللازمة السردية فبين أثرها في تقديم الشخصية، وتهيئة المتلقي لذلك عبر الكشف عن بلاغتها من ناحية نوع جملتها، ومفردات بنيتها، وموقعها الافتتاحي، ومناسبتها لما بعدها، ودلالتها على نوع القصة، وكشفها عن الثنائية الزمنية المتمثلة في زمن القصة وزمن الحكي، ثم انتقل البحث إلى بيان بلاغة التعبير النبوي في الكشف عن أبعاد الشخصية الثلاثة: البعد النفسي، والبعد الاجتماعي، والبعد المادي، وكيف ساهمت الألوان البلاغية في تقديم تلك الأبعاد بما يتناسب مع الهدف الذي تسعى إليه القصة، والقيمة التي يهدف الرسول الكريم إلى ترسيخها، ثم اختتم البحث معالجته بالوقوف على الأثر الذي تركته صورة الشخصية في تشكيلات صور العناصر السردية الأخرى، فتناول صورة الأحداث السردية وصورة الفضاء الزماني والمكاني، وكيف ارتسمت تلك الصور على هدي من صورة الشخصية.

الكلمات المفتاحية: السرد، الشخصية، القصة النبوية، الصحيحين، البلاغة النبوية.

The image of the character in the hadiths of those who were before you was a rhetorical study in the two Sahihs.

Ismail Okasha Mohamed Sayed Ahmed
Department of Rhetoric and Criticism, College of Arabic Language, Mansoura, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt.
Email: ismaeilokasha.32@azhar.edu.eg

Abstract:
The Prophet's stories are a branch of the Prophet's rhetoric, which has tempted researchers in the rhetorical field through various ages by casting its shadows and picking out its fruits. Where the rhetorical library was pleased with many of the classifications that reveal the eloquence of the Noble Messenger, and the research was conducted to a branch of that blessed Doha, which is the historical stories opened with the phrase (He was among those who were before you), so he searched in his blessed spaciousness for the image of the character and the eloquence of the Prophet's statement in its presentation, and for the sake of To achieve this goal, the research has studied the narrative imperative, showing its impact on presenting the character, and preparing the recipient for that by revealing its eloquence in terms of its sentence type, vocabulary of its structure, its opening position, its relevance to its aftermath, its significance to the type of story, and its disclosure of the temporal duality represented in the time of the story. And the time of storytelling, then the research moved to a statement of the eloquence of prophetic expression in revealing the three dimensions of personality: the psychological dimension, the social dimension, and the material dimension, and how the rhetorical colors contributed to presenting those dimensions in proportion to the goal that the story seeks, and the value that the Holy Prophet aims to consolidating them, then the research concluded its treatment by examining the impact that the image of the character had on the formations of images of other narrative elements. This is from the profile picture.

Keywords: Narration, Character, Prophetic Story, Two Sahihs, Prophetic Rhetoric.

مقدمة

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، والصلاة والسلام على النبي محمدٍ الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فإن البيان النبوي بحرٌ غاصٌ بآيات الفن، وسمات التفرد، وشاردات البلاغة، ولا غرو؛ فقد فاض عن أفصح الأعاريب، وصدر عن النبعة الشريفة التي تعهدتها الذات الإلهية بالتأديب.

وإذا كان تفرد البيان النبوي قد أغرى الباحثين فيمموا وجوههم شطره مفتشين في نواحيه، كلٌ فيما يخصه ويعنيه، فإن دارسي البلاغة كانوا من أكثر الناس حظوة بذلك البيان؛ حيث سطروا الكتب الكثيرة في الكشف عن دقائقه البلاغية وميزاته الأسلوبية.

بيد أن تلك الكتب والدراسات على كثرتها، وقيمتها، وتنوع مناهجها، وتعدد مشاربها لم تعتن العناية المرجوة ببلاغة العناصر السردية في البيان النبوي؛ فالدراسات البلاغية التي درست القصة في البيان النبوي قليلةٌ جدا، وهي على قلتها قد فاتها أن تحفل بخصوصية السرد والقصة فتقيم خطة الدراسة على هدي من تلك الخصوصية، تجد ذلك واضحًا في الدراسة التي قُدمت تحت عنوان: بلاغة التراكيب في القصص النبوي في الصحيحين، وهي رسالة دكتوراه للدكتور/ محمد السيد الطباخ، وتناولت في بابها الأول: الأساليب التربوية في القصة النبوية، وتناولت في بابها الثاني: الملامح الأدائية في القصة النبوية، وفي كلا البابين لم يتم التعريج على العناصر السردية نفسها، وتجد ذلك أيضا في الدراسة التي قدمت تحت عنوان: القصة النبوية في الصحيحين، دراسة بلاغية، وهي رسالة ماجستير للباحث/ محمد بن سعد بن زيد الكتان، حيث فصل الباحث بين البلاغة والعناصر السردية، فدرس المسائل البلاغية الجزئية في خمسة فصول دراسةً مستقلةً بعيدًا عن العناصر

القصصية، ثم درس العناصر القصصية دراسةً نقديةً في فصلٍ واحدٍ بعيدًا عن الدراسة البلاغية.

ولذا كان هذا البحث الذي يحمل عنوان: صورة الشخصية في أحاديث كان فيمن كان قبلكم بين اللازمة السردية والأبعاد التكوينية، دراسة بلاغية في الصحيحين، وهو يهدف إلى المزج بين البلاغة والنقد، ودراسة الشخصية من خلال صورتها اللغوية، والكشف عن دور البلاغة في إبراز الأبعاد المؤطرة للشخصية، وإظهار الأثر الذي عكسته صورة الشخصية على صور بقية العناصر السردية في القصص النبوية محل البحث.

والقصص النبوي متعدد الصنوف؛ ولذا جاءت عبارة (كان فيمن كان قبلكم) في العنوان لتختص القصص التاريخي المبدوء بهذه العبارة – مع تنويع فيها – دون غيره، وهو اختصاصٌ اقتضى دراسة تلك العبارة بوصفها لازمةً سرديةً تركت أثرها على النص ومتلقيه.

وقد اعتمد البحث على منهجين: أولهما: المنهج الاستقرائي، وبواسطته تم استقراء الصحيحين استقراءً تامًا وإخراج الأحاديث المقصودة بالدراسة، وآخرهما المنهج التحليلي، وبواسطته تم تحليل الصور اللغوية والوقوف على الألوان البلاغية، وبيان داعيها وأثرها.

وقد انتظم البحث في مقدمةٍ، وثلاثة فصولٍ، وخاتمةٍ، وفهارس فنيةٍ، فبينت في المقدمة أهمية الموضوع، والدراسات السابقة عليه، والدافع إلى دراسته، والمناهج المتبعة في ذلك، والخطة التي سار عليها البحث، وبحثت في الفصل الأول عن بلاغة اللازمة السردية وأثرها في تقديم الشخصية وتهيئة المتلقي، واقتضى ذلك مبحثين: أولهما: بلاغة اللازمة السردية نوعًا، وبنيةً، وموقعًا، وآخرهما: أبعاد السرد في بنية اللازمة السردية، وبحثت في الفصل الثاني عن بلاغة التعبير النبوي عن الشخصية السردية، واقتضى ذلك ثلاثة مباحث: أولها: البعد المادي ودور البلاغة في تقديمه، وثانيها: البعد الاجتماعي ودور البلاغة في تقديمه، وثالثها: البعد

النفسي ودور البلاغة في تقديمه، وبحثت في الفصل الثالث أثر صورة الشخصية في تشكيل صور العناصر السردية، واقتضى ذلك مبحثين، أولها: أثر الشخصية في تشكيل الصورة البلاغية للأحداث السردية، وآخرها: أثر الشخصية في تشكيل الصورة البلاغية للفضاء المكاني والزماني، ثم كانت الخاتمة التي اشتملت على أهم النتائج، وأخيرًا جاءت الفهارس الفنية المتنوعة.

الفصل الأول : بلاغة اللازمة السردية وأثرها في تقديم الشخصية وتهيئة المتلقي.

الأحاديث النبوية الشريفة محل البحث تتفق جميعُها في كونها اعتمدت على فاتحةٍ سرديةٍ، والفاتحة السردية هي:" فاصلٌ أولٌ في بعض أنواع السرد، يسبق ولكنه لا يشتمل على التعقيد"(١).

وصارت الفاتحة السردية لازمةً من لوازم السرد في هذا الصنف من الأحاديث النبوية؛ حيث إن الفاتحة السردية تلك لم تتغير صيغتها؛ فقد جاءت في كل الأحاديث محل الدراسة مرتديةً رداء عبارةٍ واحدةٍ، هي: كان فيمن كان قبلكم، مع تغير يطرأ عليها قبل الاسم الموصول (مَن) فتارة يُستبدل حرف الجر (مِن) بحرف الجر(في) فتصير الصيغة: كان ممن كان قبلكم، وتارة تأتي (كان) مع اسمها فتصير العبارة مثلًا: كان رجل ممن كان قبلكم، وتارة تحذف (كان) ويحل محلها الفعل والفاعل، أو الفعل ونائب الفاعل، أو غير ذلك من أنواع التغير.

والنظر في بلاغة اللازمة السردية الافتتاحية متعدد الوجهات؛ فوجهةٌ تتعلق بنوع جملتها، ، ووجهةٌ تتعلق بمفردات بنيتها، ووجهة تتعلق بموقعها، ووجهةٌ تتعلق بدلالتها على نوع القصة بعدها ومن ثم نوع الشخصيات المقدمة، ووجهةٌ تتعلق بازدواجية الزمن فيها، ووجهة تتعلق بدلالة بنيتها على بنية القصة بعدها، وكل تلك الوجهات تترك – من غير شك – أثرها البلاغي على النص ومتلقيه.

وهذه الوجهات المتعددة يمكن دراستها في مبحثين، ينصرف أولهما إلى التحليل البلاغي لتلك اللازمة من ناحية النوع، والبنية، والموقع، وينصرف آخرهما إلى بيان البعد السردي في تلك اللازمة من ناحية دلالتها على نوع قصتها، وكشفها عن الأزمان السردية، والاتساق بين بنيتها وبنية القصة بعدها.

(١) المصطلح السردي: جيرالد برانس، ترجمة: عابد خازندار، مراجعة وتقديم: محمد بدير، المجلس الأعلى للثقافة –القاهرة – الأولى، ٢٠٠٣م، ١٨٧. .

المبحث الأول: بلاغة اللازمة السردية نوعًا، وبنيةً، وموقعًا.

أولا: بلاغة اللازمة السردية من جهة نوع جملتها.

جاءت اللازمة السردية جملةً خبريةً، تتكون حينًا من (كان) الناقصة، وخبرها، أما اسمها فهو الشخصية الرئيسة المخبر عنها، وهي متغيرةٌ بتغير الأحاديث، كقوله – ﷺ – : كان فيمن كان قبلكم رجلٌ به جرح... [1] ، وتتكون حينا من (إن) واسمها وخبرها، كقوله – ﷺ –: إن رجلًا ممن كان قبلكم يتبختر في حلةٍ ...[2] وتتكون حينًا من الفعل والفاعل والمفعول، كقوله – ﷺ –: تلقت الملائكة روح رجلٍ ممن كان قبلكم ... [3] أو غير ذلك من أنماط التكوين التي لا تُخرج الجملةَ عن خبريتها.

وخبرية اللازمة السردية تتناسب مع خبرية القصص بعدها؛ فاللازمة السردية جاءت افتتاحيةً لأخبارٍ، والخبر يناسب الخبر؛ ولذا قامت القصص في الغالب الأعم على الجمل الإخبارية لا الإنشائية.

الافتتاح بالجملة الخبرية كذلك يعكس للمتلقي وعيًا بطبيعة السرد واحتياجاته الأسلوبية؛ فإذا كان السرد عملًا عقليًا منطقيًا منظمًا، تتوالى فيه الأحداث وتتوالد،

(١) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الأولى، ١٤٢٢هـ ، كتاب أحاديث الأنبياء صلوات الله عليهم، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم: ٣٤٦٣.

(٢) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت – بدون، كتاب اللباس والزينة، باب: تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه، حديث رقم: ٢٠٨٨.

(٣) صحيح مسلم: كتاب: المساقاة، باب: فضل إنظار المعسر، حديث رقم: ١٥٦٠.

وتبنى فيه الشخصيات وتتكامل، ويتفاعل المكان والزمان لحمل المكونات السردية، فإن ذلك كله يقتضي الجملة الخبرية التي توصف بأنها "لغة العقل والمنطق"[١] .

وقد يقال: إن الخبر قولٌ محتملٌ للصدق والكذب، وهذا يعني أن الحكم على مضمون القصص متروكٌ للمتلقي، فهو مخيرٌ بين التصديق والتكذيب، ولو ارتدت اللازمة السردية رداء الجملة الإنشائية، كأن يقال مثلًا: اعلموا أنه كان فيمن كان قبلكم، أو : أما علمتم أنه كان فيمن كان قبلكم، أو غير ذلك، لكان أبلغ.

والجواب: إن الخبر قولٌ محتملٌ للصدق والكذب، لكن ذلك الاحتمال يكون بالنظر إلى ذاته من حيث هو خبر، أما بالنظر لقائله فالأخبار تتنوع بين المقطوع بصدقه كأخبار الله تعالى، ورسله الكرام، والمقطوع بكذبه كأخبار مدعي النبوة، والمحتمل للصدق والكذب كأخبار سواد الناس[٢]، وما دام النص هنا نصًا نبويًا فهو من قبيل المقطوع بصدقه وإن جاء في ثوب الخبر.

ثانيًا: بلاغة اللازمة السردية من جهة مفردات بنيتها.

في اللازمة السردية جاء الاسم الموصول (من) محددًا لطبيعة الفاعلين أو المحدِثين في ذلك النوع من القصص، فهم أشخاصٌ عقلاءٌ، والمخاطب بالقصة كذلك أشخاصٌ عقلاءٌ، وإذا حصَّل العقلاء الأوائل قيمةً من القيم كالخوف من الله تعالى في حديث الرجل الذي طلب من أولاده أن يحرقوه بعد موته، أو الأمانة والتعفف في حديث الدار المكنوزة، أو غير ذلك، فما الذي يمنع المخاطبين من تحصيل نفس القيم!!

إن الإنسان هو محور الاهتمام في الشرائع السماوية، وكل إرشادٍ أو تكليفٍ يرتبط به بنوع من الارتباط، واللازمة السردية باتكائها على الاسم الموصول (من)

(١) دراسات في فقه اللغة: د. صبحي صالح، دار العلم للملايين ، الأولى ، ١٣٧٩هـ – ١٩٦٠م ، ١٣٦.

(٢) ينظر: دلالات التراكيب: د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة – القاهرة– الثانية، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م، ١٩١، ١٩٢.

تبرز ذلك وتوضحه، وتشي للمتلقين منذ لحظة السرد الأولى بطبيعة الفاعلين الذين ستجري الحوادث على يديهم.

ومن بلاغة البنية في تلك اللازمة السردية ذلك النغم الموسيقي الذي ولده الجناس التام بين الفعلين (كان – كان) .

وقد يقال: إن الجناس كما عرفه البلاغيون هو: تشابه الكلمتين في اللفظ واختلافهما في المعنى[١]، فهل يمكن أن ينطبق مثل ذلك الحد على الفعلين في اللازمة السردية؟

والجواب أن الفعلين يحتملان الجناس حال تضمينهما معاني مختلفة، كأن يضمن الفعل الثاني معنى (وجد) أو (عاش) وتكون صيغة اللازمة السردية على هذا النحو: كان فيمن عاش قبلكم، أو: كان فيمن وُجد قبلكم.

وإذا كان القول بالجناس فيه أخذٌ وردٌ فإن القول بانتفائه لا يعني انتفاء الأثر الموسيقي؛ ففي الكلام ترديدٌ يقوم بما يقوم به الجناس من إحداث النغم، والترديد عند البلاغيين هو: "عبارة عن أن يعلق المتكلم لفظة من كلامه بمعنى، ثم يرددها بعينها معلقة بمعنى آخر"[٢] وهو من حسن الرصف وجمال التأليف كما يقول العلوي[٣].

ثالثًا: بلاغة اللازمة السردية من جهة موقعها من القصة.

اللازمة السردية جملة افتتاحية، والجملة الافتتاحية في الأعمال السردية تشبه أبيات المطالع في الأعمال الشعرية، وإذا كانت المطالع الشعرية قد حازت اهتمام المبدعين والمتلقين على حد سواء حتى قال الجاحظ رواية عن شبيب بن شيبة:"

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني، شرح وتعليق وتنقيح: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني – بيروت – السادسة، ١٩٨٥م – ١٤٠٥هـ، ٥٣٥.

(٢) أنوار الربيع في أنواع البديع: ابن معصوم المدني، حققه وترجم لشعرائه: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان – النجف الأشرف – الأولى، ١٣٨٨هـ – ١٩٩٦م، ٣/٣٥٩.

(٣) ينظر: كتاب الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلويّ، المكتبة العصرية – بيروت – الأولى، ١٤٢٣ هـ ، ٣/٤٧.

الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه"[١]. فإن الجمل الافتتاحية بوصفها ابتداء للأعمال السردية لا تقل شأنا؛ إذ عليها المدار في استقطاب المسرود لهم ودفهم إلى متابعة السرد والوصول إلى نهاية الأحداث.

واللازمة السردية بتنوع ضروب بلاغتها قد فجر الافتتاح بها الإثارة والتشويق؛ فما إن يقول القائل: كان فيمن كان قبلكم، حتى تتطلع نفوس المتلقين إلى ما يأتي بعدها، ولا غرو؛ فالنفس الإنسانية مفطورة على حب القص، تتابع الحدث تلو الحدث وتترقب النهايات، وهو ما يخلق فيها حالة من المتعة النفسية واليقظة الذهنية، متعة ويقظة يسمحان بتحقيق المقاصد الدعوية التي يهدف الرسول – ﷺ – إلى تحقيقها.

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ابن رشيق، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل – بيروت – الخامسة، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م، ٢١٦/١.

المبحث الثاني: أبعاد السرد في بنية اللازمة السردية.

أولًا: بلاغة اللازمة السردية من جهة دلالتها على نوع القصة بعدها.

اللازمة السردية تؤطر منذ لحظة التلقي الأولى لنوع القصص المذكور بعدها؛ فإذا كان القصص النبوي يأتي على صنوف عدة، مثل القصص التمثيلي كقوله – ﷺ–: «مَثَلُ المُسْلِمِينَ، وَاليَهُودِ، وَالنَّصَارَى، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ، عَلَى أَجْرٍ مَعْلُومٍ، فَعَمِلُوا لَهُ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ، فَقَالُوا: لاَ حَاجَةَ لَنَا إِلَى أَجْرِكَ الَّذِي شَرَطْتَ لَنَا وَمَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ، فَقَالَ لَهُمْ: لاَ تَفْعَلُوا، أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ، وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا، فَأَبَوْا، وَتَرَكُوا، وَاسْتَأْجَرَ أَجِيرَيْنِ بَعْدَهُمْ، فَقَالَ لَهُمَا: أَكْمِلاَ بَقِيَّةَ يَوْمِكُمَا هَذَا وَلَكُمَا الَّذِي شَرَطْتُ لَهُمْ مِنَ الأَجْرِ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينُ صَلاَةِ العَصْرِ، قَالاَ: لَكَ مَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ، وَلَكَ الأَجْرُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فِيهِ، فَقَالَ لَهُمَا: أَكْمِلاَ بَقِيَّةَ عَمَلِكُمَا مَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ شَيْءٌ يَسِيرٌ، فَأَبَيَا، وَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ، وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا، فَذَلِكَ مَثَلُهُمْ، وَمَثَلُ مَا قَبِلُوا مِنْ هَذَا النُّورِ»[1] ، والقصص الغيبي كقوله – ﷺ – «العَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَأَقْعَدَاهُ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا، وَأَمَّا الكَافِرُ، أَوِ المُنَافِقُ، فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لاَ دَرَيْتَ وَلاَ تَلَيْتَ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ»[2] والقصص التاريخي، وهو ما البحث بصدده، وغير ذلك من الصنوف.

(١) صحيح البخاري: كتاب: الإجارة، باب الإجارة من العصر إلى الليل، حديث رقم: ٢٢٧١.

(٢) السابق: كتاب: الجنائز، باب: الميت يسمع خفق النعال، حديث رقم: ١٣٣٨.

يقول البحث: إذا كان قصص النبي – × – متنوعًا هذا التنوع فإن اللازمة السردية (كان فيمن كان قبلكم) تختص القصص التاريخي، وتأخذ أفهام المتلقين إليه.

وقد يقال: إن النص على النوع القصصي لا أهمية له؛ فالقصص النبوي على اختلاف صنوفه قصص دينيٌ تربويٌ تعليميٌ يهدف إلى الأثر القيمي لا الأثر الفني، فأصحاب الرسالات – أنبياء كانوا أو غير أنبياء – يتجاوزون النص إلى القيمة المستهدفة من ورائه، ومن ثم فلا فرق إن كانت القصة تاريخية أم ذاتية أم تمثيلية أم غيبية أم غير ذلك.

والجواب: إن القصص النبوي قصصٌ قيميٌ من غير شك، لكن تمكين القيمة في نفوس المتلقين يتوقف على طريقة تقديمها وسوقها؛ ففرقٌ بين قيمةٍ تزف إلى المتلقين في ثوب خبرٍ كان، كما هو الحال في القصص التاريخي، وقيمة تزف إليهم في ثوب خبر سيكون، كما هو الحال في القصص المستقبلي، وفرق بين الصنفين كليهما وبين قيمة تزف إلى المتلقين في ثوب خبر مفترض كما هو الحال في القصص التمثيلي، ولو لم تكن تلك الفروق قائمةً، وكانت كل طرق الصوغ متساويةً لما عدل البيان النبوي عن الطريق التقليدي (افعل ولا تفعل) إلى طرق القص عموما، ولو تساوت طرق القص جميعها في تقديم القيمة وتمكينها في النفوس لما نوع النبي – ﷺ – فيها، ولاقتصر على طريقٍ منها لا يبرحه.

خذ مثلا مسألة قتل الإنسان نفسه فقد قدمها النبي – ﷺ – بالطريق المباشر في قوله: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»[1] وقدمها النبي – ﷺ – بطريق القص

(١) السابق: كتاب: الطب، باب: شرب السم والدواء به وبما يخاف منه، حديث رقم: ٥٧٧٨.

في قوله: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ، فَجَزِعَ، فَأَخَذَ سِكِّينًا فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ، فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حَتَّى مَاتَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ»[1].

تأمل الطريقين السابقين ووازن بينهما يستبين لك الفرق؛ ففي طريق الشرط حدةٌ ونبرةٌ عاليةٌ وفي طريق القص تؤدةٌ وسوقٌ رقيقٌ، وفي طريق الشرط تقديمٌ لحالة مفترضة وفي طريق القص تقديمٌ لحالة واقعة، ولا يقول البحث بأن طريقا من تلك الطرق أبلغ من طريق بل غايته أن يثبت أن لكل طريق آليته في مخاطبة النفوس وتقديم المعنى المراد.

ثانيًا: بلاغة اللازمة السردية من جهة دلالتها على الثنائية الزمنية.

قامت اللازمة السردية على الأفعال الماضية (كان – كان) وهو ما حقق الازدواجية الزمنية صراحة؛ فإذا كانت الأعمال السردية عمومًا أعمالًا مزمنةً؛ حيث تقوم على المزج بين زمنين هما زمن القصة وزمن الحكي[2] أو زمن الخطاب فإن اللازمة السردية تحقق الزمنين وتفصل بينهما في آن واحد؛ إذ تنص الأفعال الماضية فيها على أن زمن القصة متقدمٌ على زمن الخطاب، وهو ما ينعكس بدوره على الأحداث المسرودة من ناحيتين:

الناحية الأولى: الواقعية، إمكانًا وحصولًا، فالمتلقي أمام أحداثٍ تتصف بصفتين، أولاهما: الإمكانية العقلية، فالأحداث المذكورة في هذا الصنف من الأحاديث أحداثٌ عاديةٌ لا يستبعد العقل إمكانية حصولها، وأخراهما: الحصول الفعلي، فالأحداث ليست ممكنةً عقلا فحسب، بل واقعة كذلك، وهاتان الصفتان لهما انعكاسهما على قبول المتلقي لمضمون تلك الأحاديث والتأثر بها، فلو كانت الأحداث مثلًا أحداثًا خياليةً كما نطالع في الخرافات والأساطير لحققت – ربما –

(١) سبق ذكره.

(٢) زمن القصة هو الزمن الذي وقعت فيه الأحداث وزمن الخطاب هو الزمن الذي حكيت فيه تلك الأحداث، وينظر في ذلك: قاموس السرديات: جيرالد برانس، ترجمة: السيد إمام، ميريت للنشر والمعلومات – القاهرة – الأولى، ٢٠٠٣م، ٤٨، ٦٢، ١٨٩.

الأثر الفني ، ولا يعني ذلك بحال من الأحوال تجاوز المتلقي لذلك الأثر الفني إلى التصديق والتأسي.

الناحية الثانية: تحويل الواقعي إلى ذاتي، والخاص إلى عام، فاستدعاء الأحداث من طيات التاريخ ونقلها من زمن القصة إلى زمن الحكاية يأخذها من التجربة الواقعية المدركة ذهنيًا إلى التجربة الذاتية(١).

والذات المقصودة ذاتٌ متعددةٌ تبدأ من السارد نفسه الذي أحس بأحداث قصته واستشعر القيمة التي تحتويها ومن ثم أراد نقلها، وتنتهي بالمسرود لهم، وهم متجددون كلما تجدد السرد، وهو بدوره متجددٌ ما دامت الأمة تتلقى تلك الأحاديث.

ثالثًا: بلاغة اللازمة السردية من جهة التشابه بين بنيتها وبنية القصة بعدها.

بُنيت اللازمة السردية على الإبهام وإهمال التفاصيل؛ فلا يجد المتلقي فيها تأريخا للزمان كأن يقال: كان فيمن كان قبلكم في زمن كذا، أو تحديدا للمكان كأن يقال: كان فيمن كان قبلكم في مكان كذا، أو استيفاء للأبعاد الثلاثة المؤطرة للشخصية كأن يقال: كان فيمن كان قبلكم رجل صفته الجسمية كذا، وصفته الاجتماعية كذا، وصفته النفسية كذا.

وهذا الإبهام والإجمال في بنية اللازمة السردية هو هو الموجود في بنية القصة النبوية بعد اللازمة السردية، وكأنها تشي للمتلقي منذ اللحظة الأولى بما ستكون عليه بنية القصة بعدها من الناحية الفنية؛ فالعناصر الفنية من أحداث وشخصيات وزمان ومكان وحبكة كلها موجودة لكن بشكل مجمل لا تجد فيه تفصيلا إلا في حدود ضيقة يقتضيها التركيز على المغزى وإيصال الموعظة المقصودة.

(١) ينظر: انفتاح النص الروائي: سعيد ياقطين، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – الثانية، ٢٠٠١م، ٤٧.

الفصل الثاني: بلاغة التعبير النبوي عن الشخصية السردية.

الشخصية في الأعمال السردية "تشكل بؤرةً مركزيةً لا يمكن تجاوزها أو تجاوز مركزيتها"(١) ولذا فهي واحدةٌ من أهم العناصر السردية، بل يجعلها بعضهم أهم هذه العناصر كأرنولد بينات الذي يقول: "إن أساس النثر الجيد هو وصف سمات الشخصية وخصالها ولا شيء غير ذلك"(٢).

وعرف المنظرون للسرد الشخصية بأنها:" أحد الأفراد الخياليين أو الواقعيين الذين تدور حولهم أحداث القصة"(٣).

والشخصية تقسم في الفضاء السردية إلى تقسيمات عديدة أهمها الشخصيات الرئيسة، وهي: "الشخصية التي تدور حولها معظم الأحداث، وتؤثر هي في الأحداث أو تتأثر بها ... وتستمد معظم الشخصية وجودها من مقدار صلتها بها ومن طبيعة تلك الصلة"(٤) . والثانوية، وهي: التي تساعد الشخصية الرئيسة على إتمام دورها، وعلى نموها، وهذه الشخصية لا يحفل بها الكاتب كثيرًا، ولا يهتم بتفصيلات حياتها، ولا يتابع تطور أفكارها إلا في الحدود التي تخدم الفكرة الجوهرية للحكاية أو القصة؛ وقد يكون لها دورٌ فعالٌ ومؤثرٌ في سير الأحداث إلى

(١) سرد الآخر، الأنا والآخر عبر اللغة السردية، صلاح الصالح، المركز الثقافي العربي – بيروت – الأولى، ٢٠٠٣م، ١٠١.

(٢) تقنيات الوصف في القصة القصيرة السعودية: هيفاء الفريح، نادي الرياض الأدبي – الرياض – الأولى، ٢٠٠٩م، ٤٩.

(٣) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، الثانية، ١٩٨٤م، ٢٠٨.

(٤) من فنون الأدب المسرحية: د. عبد القادر القط، دار النهضة العربية –بيروت –الأولى، ٢٠٠٩م، ٢٦.

الأمام حتى ولو كانت قليلة الظهور والنشاط؛ وفي بعض الأحيان تمثل هذه الشخصية آراء الكاتب وأفكاره ونزعاته(١).

وإذا كانت الشخصية في الأعمال السردية يتم تقديمها عبر الكشف عن أبعادها الثلاثة: المادي، النفسي، الاجتماعي، فإن الأحاديث لم تستقص تلك الأبعاد؛ إذ يكتفي النص بالاحتفاء بالبعد المتعلق بالقيمة المسوقة، وهو ما يستدعي دراسة البعد المحتفى به بلاغيًا وبيان السبب في الاحتفاء به.

(١) ينظر: بناء الرواية: د. عبد الفتاح عثمان، ١١٨

المبحث الأول: البعد المادي ودور البلاغة في تقديمه.

روى البخاري أن رسول الله – ﷺ– قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ، تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ؛ إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (١) وعنده في حديث آخر:« بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الْخُيَلاَءِ خُسِفَ بِهِ، فَهْوَ يَتَجَلْجَلُ فِى الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » (٢).

وروى الإمام مسلم أن النبي– ﷺ – قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ، يَمْشِي فِي بُرْدَيْهِ، قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، فَخَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» وفي رواية عنده: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي بُرْدَيْنِ ...» وفي ثالثة: «إِنَّ رَجُلًا مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَتَبَخْتَرُ فِي حُلَّةٍ ...» (٣) .

والحديث بمجموع رواياته يقص خبر رجلٍ قد راقته ثيابه، وأعجبه هندامه، وحسنت في عينه نفسه؛ فدعاه ذلك إلى العُجب والتكبر.

والبعد المسيطر في الكشف عن الشخصية المقدمة هو البعد المادي، فقد رأى القارئ للحديث الشريف المشية المتبخترة، والخلقة السوية، والشعر المنسدل، والثياب الرافلة الجرارة، وعرف كيف حملت تلك الأوصاف صاحبها على العجب والكبر، ومن ثُم أودت به.

وعند النظر في بلاغة التعبير النبوي عن هذا البعد وكيف تم استثمار الأدوات البلاغية لإخراجه في كلمات قليلة وأسلوب موجز فإن أول ما يطالع النظر هو مجي كلمة (رجل) نكرةً مهما اختلفت الرواية (بينما رجل) (إن رجلا ممن كان قبلكم) والسر في ذلك يعود إلى عدة أمور:

---

(١) صحيح البخاري: كتاب اللباس، باب: من جر ثوبه من الخيلاء، حديث رقم: ٥٧٨٩.

(٢) السابق: كتاب أحاديث الأنبياء صلوات الله عليهم، باب: حديث الغار، حديث رقم: ٣٤٨٥ .

(٣) صحيح مسلم: كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه، حديث رقم: ٢٠٨٨ .

الأول: إن التعريف لا تتعلق به فائدةٌ؛ إذ اسم الجنس المعرف بأل الجنسية كالنكرة في دلالة كل منهما على الفرد المنتشر [١] أي المدلول على جنسه من غير تحديدٍ لشخصه، فـ " تعريف الجنس تعريفٌ لفظيٌ، وهو في معنى النكرة، فقولك: خلق الله الإنسان من الطين، هو بمعنى: خلق الله الإنسان من طين"[٢] ، وما لا تتعلق به فائدةٌ تركه أبلغ من ذكره.

الثاني: إن مدار الكلام على الفعل لا الفاعل؛ فمحط الذم هو الكبر والخيلاء واقعًا ممن وقع، وعليه فليس ثمة حاجةٍ إلى تعريف الشخصية المحدِثة.

الثالث: إبهام الشخصية المحدثة يصرف أذهان المتلقين إلى الحدث؛ فالمرور الخاطف على الشخصية المنكورة يفسح المجال للتوقف أمام فعلها المنطوي على الفائدة للمستمع، والمقصود بالمعرفة والتمكين من المتكلم.

ولأجل تلك الفوائد البلاغية لم تأت الشخصية المقصودة بالحكي في الأحاديث محل البحث إلا منكرة.

وفي رواية عند أحمد : بينما رجل شاب يمشي، بزيادة الصفة (شاب) وهي زيادةٌ تقدم ملمحًا جديدًا من ملامح البعد المادي الذي يؤطر للشخصية ويمهد لحدوث الكبر تمهيد السبب للنتيجة؛ فداعي الكبر كما بين الحديث هو جمال الجسم، وجمال الجمة، وجمال الثوب، فإذا ما أضيف إلى ذلك الشباب، وهو أجمل مراحل العمر، كان ذلك أدعى لحصول الكبر.

وقوله – × – في رواية مسلم: يتبختر، أي يمشي مشية المتبختر، وبذلك فرواية مسلم مقيدةٌ لمطلق المشي في رواية البخاري.

---

(١) ينظر: حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك: أبو العرفان محمد بن علي الصبان، دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى ١٤١٧ هـ –١٩٩٧م، ١٩٨/١.

(٢) معاني النحو: فاضل صالح السامرائي، شركة العاتك للطباعة والنشر – القاهرة – الثانية، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٠٣م، ١٠٦.

والتبختر مشيةٌ حسنةٌ تنبئ عن إعجاب المرء بنفسه، قال ابن منظور: البُختري: المتبختر في مشيه، وهي مشية المتكبر المعجب بنفسه(١).

وبلاغة التعبير بكلمة (يتبختر) تكمن في دلالتها، وصيغتها، وجريانها، أما دلالتها فالكلمة تتميز بأنها لا تقدم حسن المشية فحسب كأخواتها، بل تدل على حسن الجسم أيضا، فالتبختر حسنٌ في المشي وحسنٌ في الجسم، قال ابن منظور: ورجل بختير وبختري: صاحب تبختر، وقيل: حسن المشي والجسم(٢)، وقال الفراء:" البختري: الجَسِيم الحسن الميس في برديه"(٣)، والكلمة بتلك الدلالة حققت الإيجاز؛ إذ وصفت المشية والجسم في آن واحد، وأثْرَت الأسباب التي سينبني عليها حدوث الكبر.

وأما الصيغة ففيها تخويفٌ وزجرٌ؛ فالتبختر قد دُل عليه بالفعل، والفعل يفيد التجدد والحدوث لا الدوام واللزوم، أي: إن التبختر لم يكن خليقةً في الرجل، وإنما يحدث منه المرة بعد المرة متى رأى من نفسه ومن ثيابه حُسنا، ومع هذا خُسف به الأرض، فكيف بمن لا يفارق الكبر دربهم!

إن التعبير بالفعل يحمل أقصى درجات التخويف؛ فعقاب الله لا يستلزم الإصرار وكذا ثوابه؛ فرب سيئةٍ واحدةٍ أوجبت الهلاك، ورب حسنةٍ واحدةٍ أورثت النجاة.

وأما جريانها فالكلمة دائرةٌ على الألسنة، مأنوسةٌ للأسماع، بخلاف أخواتها الدالات على مشية التكبر والخيلاء كتميح، وتخندف، وتبهنس، وتبهرس، وغير ذلك من الغريب الذي لا يحسُن في نص يُخاطَب به كل الناس على مر الأزمان.

---

(١) لسان العرب: مادة: بختر،

(٢) السابق نفسه.

(٣) معجم ديوان الأدب: تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر، مراجعة: دكتور إبراهيم أنيس، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر – القاهرة – ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م، ٣٣/٢.

وقوله – ﷺ – يمشي في برديه، وقوله: يمشي في حلةٍ، على اختلاف الروايات، يُظهر للمتلقي ملمحًا آخر من ملامح البعد المادي في شخصية الرجل، وهو المتعلق بالثياب.

والحلة كل ثوبٍ جيدٍ جديدٍ، وهي رداءٌ وقميصٌ، وقيل: رداءٌ وقميصٌ وإزارٌ(١)، والبُرد: ثوبٌ فيه خطوطٌ، وخص بعضهم به الوشي(٢)، والحلة والبرد كلاهما مدعاةٌ للزهو، وذكرهما ملائمٌ تمام الملائمة للشخصية المتكبرة.

وتثنية البردين فيه دلالةٌ على الترف والثراء؛ فقد روى المبرد أن رجلا يقال له الحضرمي بن عامر الأسدي كان له أخوةٌ فهلكوا، وورث أموالهم، فخرج يومًا على الناس في بردين، فقال له رجلٌ من قومه: لقد أمسيت يا حضرمي جذلان(٣)، فاستدل الرجل على الثراء من لُبس البردين.

والظرفية في العبارة توحي بأن البردين أو الحلة سابغةٌ وافيةٌ، قد كست الرجل رأسًا لقدمٍ وبطنًا لظهرٍ، وهو ما يفسره قوله – ﷺ – في بعض الروايات – يجر إزاره، والبردان السابغان المسبلان آيةُ عجبٍ وخيلاء.

ولأجل الحسن الذي في البردين، ودلالتهما على الثراء، ودلالة إسباغهما على الزهو، تُرك العاطف بين الجملتين (بينما رجل يتبختر – يمشي في برديه) لما بينهما من كمال الاتصال؛ فالجملة الثانية تأكيدٌ للمعنى الذي أفادته الجملة الأولى، أو بيانٌ وتفسيرٌ للأسباب الداعية إلى التبختر، وكذا كل جمل الحديث في كل رواياته، فلم يدخل العاطف أبدًا بين تلك الجمل لأنها جميعًا تقع من بعضها موقع التأكيد أو البيان.

---

(١) لسان العرب: مادة: حلل .

(٢) السابق: مادة: برد.

(٣) ينظر: التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا: تقديم وتحقيق: إبراهيم محمد حسن الجمل، مراجعة: محمود سالم، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، بدون، ٣٥٩.

وقوله – ﷺ – مرجلٌ جمته، ملمح مادي آخر يظهر صفةً من صفات الحسن وكمال الخلقة، تلك الصفات التي سيترتب على وجودها مجتمعةً حصول الكبر.

والتعبير فيه بعدان بلاغيان، أولهما: مغايرة النسق واستبدال اسم الفاعل بالفعل المضارع، فلم يقل: يرجل جمته، جريًا على النسق المتقدم: يمشي في حلة، تعجبه نفسه؛ والسر في ذلك هو تطلب المعنى لدلالة اللزوم الاسمية؛ فالترجيل لا يتصور فيه أن يحدث المرة بعد المرة من رجلٍ يسير في الشارع قد أكمل هندامه قبل خروجه، بخلاف المشي والعجب، وآخرهما: هو النص على خصوصية الجمة دون مطلق الشعر، فلم يقل: مرجلٌ شعره؛ إذ الجمة تدل على حسنٍ زائدٍ، فالجمة: هي ما انسدل على الكتفين من شعر الرأس، وهي فوق الوفرة، وأكثر من اللمة[1]، والنص على الحسن مطلبٌ مهمٌ ما دام العجب مبنيًا عليه.

وجاء قوله: قد أعجبته نفسه، جملةً ختاميةً للجمل الواصفة للشخصية في رواية الإمام مسلم " وإعجاب المرء بنفسه هو ملاحظته لها بعين الكمال مع نسيان نعمة الله فإن احتقر غيره مع ذلك فهو الكبر المذموم"[2] ، وقد تأكدت الجملة – على خلاف أخواتها – بحرف التحقيق (قد) الداخل على الفعل الماضي إيذانًا بحصول العذاب، ويصبح الأمر: تأكد الذنب فوجبت العقوبة.

إن الشخصية في ذلك الحديث لا يمكن تقديمها على الوجه الذي تتحقق به الفائدة إلا من خلال البعد المادي، صحيحٌ أن العجب والكبر من ملامح البعد النفسي لكن حصولهما متوقف على أشياء مادية وهو ما أبرزه التعبير النبوي من خلال المشية والثياب والجمة.

---

(١) لسان العرب: مادة: ج م م.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري : أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة – بيروت – ١٣٧٩هـ ، ٢٦١/١٠.

المبحث الثاني: البعد الاجتماعي ودور البلاغة في تقديمه.

جاء عند البخاري أن رسول الله – ﷺ – قال : « إِنَّ رَجُلًا كاَنَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أتَاه المَلَكُ الْمَوْتِ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ، فقيل له: هَلْ عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ؟، قَالَ: مَا أَعْلَمُ، قِيلَ له: انْظُرْ، قَالَ: مَا أَعْلَمُ شيئا غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أُبَايعُ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا وَأُجَازِيهم، فأُنْظِرُ المُوسِرَ، وأتجاوزُ عن المُعسِرِ، فَأَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ » (١) .

وعند مسلم: « تَلَقَّتِ الْمَلَائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَقَالُوا: أَعَمِلْتَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا؟ قَالَ: لَا، قَالُوا: تَذَكَّرْ، قَالَ: كُنْتُ أُدَايِنُ النَّاسَ فَآمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا الْمُعْسِرَ، وَيَتَجَوَّزُوا عَنِ الْمُوسِرِ، قَالَ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: تَجَوَّزُوا عَنْهُ » (٢) .

والبعد الاجتماعي المذكور يقدم الشخصية من خلال تعاملها مع الناس فيما يخص ناحية البيع والشراء أو المداينة، والقيمة التي يسعى النبي – ﷺ – إلى ترسيخها هي المسامحة حال استقضاء الحقوق ومراعاة ظروف الناس.

وقد عبر النبي – ﷺ – عن هذا البعد في قوله: كنت أبايع الناس في الدنيا وأجازيهم، فأنظر الموسر، وأتجاوز عن المعسر، كما جاء عند البخاري، وقوله: كُنْتُ أُدَايِنُ النَّاسَ فَآمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا الْمُعْسِرَ، وَيَتَجَوَّزُوا عَنِ الْمُوسِرِ، قَالَ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: تَجَوَّزُوا عَنْهُ، كما في صحيح مسلم.

وعند البحث في بلاغة التعبير النبوي عن هذا البعد تجد أنه ابتدأ على لسان الرجل بصيغة المضارعة (أبايع) و (أداين) بعد الماضي (كنت) وذلك من أجل استحضار المشهد ووضعه بين يدي الملائكة وكأنه يحدث الآن وهم قيام ينظرون.

إن استحضار المشهد المدلول عليه بالمضارعة هنا مطلبٌ بلاغيٌ يتطلبه حال كلٍ من المتكلم والمستمع على حدٍ سواء؛ فالمتكلم رجلٌ مات أو على عتبات

(١) صحيح البخاري: كتاب: أحاديث الأنبياء صلوات الله عليهم، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم: ٣٤٥١.

(٢) صحيح مسلم: كتاب المساقاة، باب: فضل إنظار المعسر، حديث رقم: ١٥٦٠.

الموت، على خلافٍ بين شراح الحديث[١]، وهو حريصٌ أشد الحرص على أن يظهر الخير الوحيد الذي عنده في أوضح صورةٍ علّه يفتك رقبته من أسر العذاب، والمستمع ملائكة رحمةٍ لا يقلون حرصًا على نجاة الرجل من الرجل نفسه؛ يدل على ذلك أنهم حين سألوه عن خيرٍ قدمه فأجابهم بالنفي عادوا فطلبوا منه أن يتذكر.

وبلاغة الصيغة لا تتوقف عند إفادتها للمضارعة بل تتخطى ذلك إلى المبنى الذي جاءت عليه؛ فـ (أبايع) و (أداين) فعلان مضارعان وماضيهما (بايع) و (داين) على وزن فاعل، بزيادة ألفٍ بين الفاء والعين، وهي تدل على التكثير والموالاة[٢]، أي: إن الرجل لم يفعل ذلك مرةً فحسب، بل كانت تلك عادته، وهذا يدل على تأصل خلق السماحة فيه، إن الإنسان قد تسمح نفسه مرة أو مرتين، أما أن يكون ذلك ديدنه – وهو ما دل عليه مبنى الصيغة – فهذا هو الفضل والمزية.

والمفعول في قوله: كنت أبايع الناس، جاء عامًا؛ فكلمة (ناس) لا تختص بصنفٍ دون صنفٍ ما لم توصف كأن يقال: الناس الذين من صفتهم كذا، وهذا العموم يقدم خُلق المسامحة عند الرجل في صورته الكاملة، فبعض الناس يكون سمحًا لكن مع أبناء ملته أو من تربطه بهم قرابة، أو غير ذلك، لكن سماحته تظل على قدر من تسامح معهم.

والألف واللام في كلمة (الناس) للعهد، أي الناس الذين عشت بينهم وتعاملت معهم، ولا تنفي العهدية عموم الكلمة المذكور سلفا؛ لأن خصوصية المجتمع المحكومة بالزمان والمكان لا تنفي تعدد الطوائف واختلاف المشارب داخل هذا

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: الهروي القاري، دار الفكر – بيروت – الأولى، ١٤٢هـ – ٢٠٠٢م، ١٩٠٨/٥.

(٢) ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: ابن عقيل ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث – القاهرة– دار مصر للطباعة ، سعيد جودة السحار وشركاه، العشرون ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠م، ٢٦٣/٤.

المجتمع، والعموم إنما يتحقق حين لا يختص الإنسان صنفًا من صنوف هذا المجتمع بمعاملةٍ ما.

وقوله: في الدنيا، نصٌ على معلومٍ؛ فالمبايعة والإقراض لا يكونان إلا في الدنيا، لكنه نصٌ يُعلي كثيرًا من قيمة الخير الذي يقدمه الرجل والذي لا يملك غيره؛ فكلمة الدنيا تجلب حرص البشر وتنافسهم وتكالبهم على طلب المال واكتنازه، أما الرجل فكأن طبيعته خالفت طبيعة البشر، وفارق دربه دربهم، فلم تفعل الدنيا فيه فعلها فيهم، ولو فعلت لما أقرض ثم أنظر وتجاوز.

وقوله: أجازيهم يعني: أطلب ديني وأتقاضاه، يقال: "تجازيت ديني عن فلانٍ إذا تقاضيته"[(١)] .

وإذا كانت المجازاة تعني الاقتضاء، فإن السؤال هو: لماذا آثر النص النبوي التعبير بالمجازاة؟

وجواب ذلك أن التعبير بالمجازاة فيه زيادةٌ ليست في التعبير بالاقتضاء؛ فالاقتضاء هو طلب الدين دون بيانٍ لطبيعة هذا الدين من ناحية الحل والحرمة، والعدالة والظلم، فلو أن رجلًا أقرض آخر قرضًا ربويًا إلى أجلٍ ثم جاء يطلبه لسُمي ذلك اقتضاءً مع ما في ذلك من الحرمة، ولو أن تاجرًا باع سلعةً بما هو فوق ثمنها ثم جاء يطلب الثمن لسُمي ذلك اقتضاءً مع ما في ذلك من الظلم، أما المجازاة فهي على خلاف ذلك؛ لأنها تعني اقتضاء المكافئ للشيء المعطى، قال أبو البقاء العكبري: "المجازاة هي المكافأة، والمكافأة مقابلة نعمةٍ بنعمةٍ هي كفؤها"[(٢)] وهي بتلك الدلالة تكشف عن بعدٍ جديد في شخصية الرجل، وهو بعد العدالة، فالرجل

(١) ينظر: لسان العرب: ابن منظور، اعتنى بتصحيحها: أمين محمد عبد الوهاب، محمد صادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت – الثالثة، ١٤١٩م – ١٩٩٩م، مادة: ج زى.

(٢) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت – بدون، ٣٥٦.

لا يطلب إلا نظير السلعة التي باعها، أو المال الذي أقرضه، دون استغلالٍ لحاجة الناس.

ورواية البخاري: فأجازيهم، تسند المجازاة إلى الرجل، وهو إسنادٌ يحتمل الحقيقة، ويكون المعنى: أقتضي حقي بنفسي، ويحتمل المجاز العقلي الذي علاقته السبب الآمر، ويكون المعنى: آمر غيري بفعل ذلك، وهو الأولى؛ لأن رواية مسلمٍ جاء فيها: كنت أداين الناس فآمر فتياني.

وحمل الكلام على المجاز العقلي – استنادا إلى رواية مسلم – يظهر الرجل في صورة من يمتلك أسباب القوة من مالٍ وفتيانٍ، وهو بهذا الوصف قادرٌ على أن ينتزع الذي له، بل قادرٌ على ما فوق ذلك، لكنه يعفو ويصفح عفو المقتدر لا عفو المضطر الذي يترك حقه لعجزه عن اقتضائه.

وقوله: فأنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر، يعني: أمهل الموسر وأعفو عن المعسر، جاء في اللسان: بعت فلانًا فأنظرته أي: أمهلته(١)، وجاء فيه: وتجاوز الله عنه أي: عفا(٢).

والتعبير النبوي يعج بالألوان البلاغية التي تقدم تسامح الرجل في أظهر صورة، وأول هذه الألوان هو الترقي من الأدنى إلى الأعلى؛ فقد ابتدأ بالإنظار ثم ارتقى منه إلى الإبراء، والإبراء أفضل من الإنظار؛ لأن الإنظار هو تأخير الطلب مع بقاء العلقة، والإبراء زوال العلقة(٣).

والترقي من الأدنى إلى الأعلى يجعل آخر ما تسمعه الملائكة هو أفضل ما قدمه الرجل من الخير، وهو ما يتناسب مع سعيه إلى النجاة والخلاص من العذاب.

(١) ينظر: لسان العرب: ابن منظور، مادة: نظر.

(٢) ينظر: لسان العرب: ابن منظور، مادة: جوز.

(٣) ينظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: أبو العباس شهاب الدين القسطلاني، المطبعة الكبرى الأميرية – مصر – السابعة، ١٣٢٣هـ ، ٢٢/٤.

وثاني هذه الألوان هو الجناس بين (الموسر – المعسر) وهو بما فيه من التنغيم الناتج عن تشابه الحروف قادرٌ على حمل المستمعين "على الميل إلى الإصغاء"[١] وكذا بما فيه من المفارقة الناتجة عن اتفاق الكلمتين في اللفظ واختلافهما في الدلالة قادر على لفت الانتباه وقدح الأذهان؛ " لأن اللفظ المذكور إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر كان للنفس تشوفٌ إليه"[٢].

إن بلاغة الجناس تتخطى جرسَه الذي يداعب الآذان إلى العقول التي تبدأ حركةً فكريةً تحاول من خلالها الإجابة على إشكالية الدلالات المتباينة التي تنتج عن الألفاظ المتشابهة، فإذا ما فعلت تمكن المعنى الذي كشفت عنه الألفاظ المتجانسة في النفس خير تمكن؛ لما في تحصيله من اللأي ولجهد.

وثالث هذه الألوان هو المطابقة بين الضدين (الموسر – المعسر) وبلاغتها تكمن في أنها استقصت الأصناف ومن ثم عممت الخير، فالمدينون بين موسرين وسع الله عليهم بعد ضيق وبين معسرين ما يزالون يكابدون الفقر، وكلا الصنفين قد طالته يد الخير من الرجل؛ حيث أمهل الموسر وتجاوز عن المعسر.

ثم تأتي المفارقة في قوله : فأنظر الموسر، خاتمةً للألوان البلاغية؛ فحصول الإيسار للمدين يقتضي السداد لا الإمهال، والإنظار إنما يكون للمعسر، قال تعالى: «وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون»[٣] وقال – ﷺ –: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ، أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ» [٤] .

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع: ابن معصوم المدني، ٩٧/١.

(٢) السابق نفسه.

(٣) سورة البقرة: آية رقم: ٢٨٠.

(٤) صحيح مسلم: كتاب: الزهد والرقائق، باب: حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، حديث رقم: ٣٠٠٦.

إن المعتاد أن يستقضي الدائن دينه من الموسر وينظر المعسر، وخلاف المعتاد أن يترقى الناس في سلم الخير فينظرون الموسر ويتجاوزون عن المعسر، وهو ما فعله الرجل وأبرزته المفارقة.

بقي أن أذكر لونًا بلاغيًا أخيرًا سيطر على كامل الكلمات والجمل والأساليب التي عبرت عن البعد الاجتماعي في الشخصية، وهذا اللون هو إيجاز القصر؛ إيجازٌ قدم بعدًا كاملًا ورئيسًا في كلماتٍ قليلةٍ لا تتجاوز سطرًا.

إن البعد الاجتماعي يقف في هذا الحديث كاشفا عن الشخصية ومقدما لها؛ ولا غرو؛ فعليه كان مدار الحدث، وبه كانت خيرية الرجل، ولأجله كان العفو من الله تعالى، وقد تعاضدت الألوان البلاغية فأخرجت هذا البعد في أتم صورةٍ وأحسنها، وأغنت عن ذكر كثيرٍ من التفصيلات التي يحتاجها أي قاصٍ لإبراز بُعْدٍ ما في شخصيات قصصه.

المبحث الثالث: البعد النفسي ودور البلاغة في تقديمه.

جاء عند البخاري أن النبي – ﷺ – قال: « كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يُسِيءُ الظَّنَّ بِعَمَلِهِ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَخُذُونِي فَذَرُّونِي فِي البَحْرِ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَفَعَلُوا بِهِ، فَجَمَعَهُ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ؟ قَالَ: مَا حَمَلَنِي إِلَّا مَخَافَتُكَ، فَغَفَرَ لَهُ» (١).

وعنده عن النبي – ﷺ– « أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا فِيمَنْ سَلَفَ أَوْ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، قَالَ: كَلِمَةً، يَعْنِي: أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا وَوَلَدًا، فَلَمَّا حَضَرَتِ الوَفَاةُ، قَالَ لِبَنِيهِ: أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ – أَوْ لَمْ يَبْتَئِزْ – عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا، وَإِنْ يَقْدِرِ اللَّهُ عَلَيْهِ يُعَذِّبْهُ، فَانْظُرُوا إِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحْمًا فَاسْحَقُونِي، أَوْ قَالَ: فَاسْحَكُونِي، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ رِيحٍ عَاصِفٍ فَأَذْرُونِي فِيهَا، فَقَالَ: نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَرَبِّي، فَفَعَلُوا، ثُمَّ أَذْرَوْهُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كُنْ، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ قَائِمٌ، قَالَ اللَّهُ: أَيْ عَبْدِي مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ – أَوْ فَرَقٌ مِنْكَ – قَالَ: فَمَا تَلَافَاهُ أَنْ رَحِمَهُ عِنْدَهَا » (٢) .

وجاء عند مسلم أن النبي – ﷺ – ذكر « أَنَّ رَجُلًا فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، رَاشَهُ اللهُ مَالًا وَوَلَدًا، فَقَالَ لِوَلَدِهِ: لَتَفْعَلُنَّ مَا آمُرُكُمْ بِهِ أَوْ لَأُوَلِّيَنَّ مِيرَاثِي غَيْرَكُمْ، إِذَا أَنَا مُتُّ، فَأَحْرِقُونِي ، وَأَكْثَرُ عِلْمِي أَنَّهُ قَالَ: ثُمَّ اسْحَقُونِي، وَاذْرُونِي فِي الرِّيحِ، فَإِنِّي لَمْ أَبْتَهِرْ عِنْدَ اللهِ خَيْرًا، وَإِنَّ اللهَ يَقْدِرُ عَلَيَّ أَنْ يُعَذِّبَنِي، قَالَ: فَأَخَذَ مِنْهُمْ مِيثَاقًا، فَفَعَلُوا

(١) صحيح البخاري: كتاب: الرقاق، باب: الخوف من الله، حديث رقم: ٦٤٨٠.

(٢) السابق: كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: يريدون أن يبدلوا كلام الله، حديث رقم: ٧٥٠٨.

ذَلِكَ بِهِ، وَرَبِّي، فَقَالَ اللهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ؟ فَقَالَ: مَخَافَتُكَ، قَالَ فَمَا تَلَافَاهُ غَيْرُهَا»[(١)].

وعند النظر في ذلك الحديث نجد أن الشخصية قد ظهرت من خلال أبعادها الثلاثة: النفسي، والاجتماعي، والمادي، لكن البعد المسيطر في الكشف عن الشخصية، والمؤثر في الأحداث، والحامل للفائدة السردية هو البعد النفسي؛ فقد عرف القارئ الشخصية من خلال اعتقادها في عملها، وتقصيرها في حق الله تعالى، وخوفها من لقائه.

وقد تمثل البعد المادي في النص على جنس المحكي عنه (رجل) وقد سبق بيان ما فيه من البلاغة، وتمثل البعد الاجتماعي في قوله: راشه الله مالًا وولدًا، وذكرُه يقوي البعد النفسي الدائر حول خوف الرجل من الله، فمن راشه الله المال والولد ثم عصى الله، وكانت معصيته نبش القبور وسرقة أكفان الموتى – كما نص شراح الحديث[(٢)] – عليه أن يرتجف حيث لا عذر له؛ إذ ربما يعتذر المُعدمون عن مثل ذلك الذنب بعدمهم، وهذا محالٌ في رجل ريش المال والولد.

وتأتي الاستعارة المكنية في قوله: راشه الله مالًا وولدًا، لتعمق جرم الرجل وتعظم ذنبه؛ حيث صورت الرجل في صورة طائرٍ ريشه المال والولد؛ وهو تصوير يعكس وفرة النعمة وكثرتها، الأمر الذي يستوجب العطاء والتفضل لا الأخذ بغير حق.

وتقديم المال على الولد في التعبير النبوي فيه اقتداء بالنص القرآني (المال والبنون) غير أن علة الاقتداء لا تمنع من البحث عن أسباب هذا التقديم عمومًا وخصوصًا، أما العموم فأسبابه ما يلي:

(١) صحيح مسلم: كتاب: التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى، حديث رقم: ٢٧٥٧.

(٢) ينظر: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري: الكرماني، دار إحياء التراث العربي – بيروت – الثانية، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م، ٨٩/١٤.

أولًا: المال أسبق في الحصول زمانًا من الولد؛ فلا ولد قبل البلوغ، والمتقدم زمانًا أولى بالتقديم بيانًا.

ثانيًا: المال أكثر أهميةً من الولد؛ فقد يعيش الناس بلا أولاد لكنهم لا يستطيعون العيش بلا مالٍ، والأهم أولى بالتقديم من المهم.

ثالثًا: المال لا يتصور منه عقوقٌ؛ فهو خادمٌ لا يخالف مالكه، والولد منه العاق والبار، وما لا تتأتى منه المخالفة أولى بالتقديم ممن تتأتى منه.

رابعًا: المال على اختلاف صنوفه محبب للبشر على اختلاف صنوفهم، والولد ليس كذلك؛ فالعرب في جاهليتهم كانوا يكرهون البنات، ويسود وجه أحدهم إذا بشر بالأنثى، والمُجمع على حب كل صنوفه مقدمٌ على المختلف فيه.

وأما الخصوص؛ فالسياق في الحديث لبيان شدة فَرَق الرجل من لقاء الله من أجل سرقته لأكفان الموتى مع غناه عن ذلك، وتقديم المال يظهر ذلك الفَرَقَ ويقويه، فحصول السرقة مع وجوده أشد من حصولها مع الفقر والإعدام.

وقد ظهر البعد النفسي في قوله – ﷺ – في رواية البخاري الأولى: يسيء الظن بعمله، وقوله في الرواية الثانية: فلما حضرته الوفاة قال لبنيه: أي أب كنت لكم، قالوا: خير أب، قال: فإنه لم يبتئر أو لم يبتئز عند الله خيرا، وإن يقدر الله عليه يعذبه.

والتعبير النبوي في رواية البخاري (يسيء الظن بعمله) يكشف عن اعتقاد الرجل فيما قدم من الأعمال، وتأتي أهميته في أنه سيمثل الأساس الذي ستنبني عليه كل الأحداث فيما بعد؛ فلو لم يسئ الرجل الظن بعمله لما طلب من أولاده الإحراق والذرو، ولما جمعه الله وسأله عن علة فعله، إلى آخر ما حدث.

والتعبير فيه كنايةٌ عن موصوف، والموصوف هي الأعمال السيئة، وهي مثبتةٌ بدليل إساءة ظن صاحبها فيها، ولو تغير التعبير فقيل: كان فيمن كان قبلكم رجلٌ سيء العمل، لكان إخبارًا بلا دليل.

والظن هنا مستعمل في معنى اليقين؛ لأن نص الحديث يصرح بالاعتقاد الجازم، فالرجل موقن من سوء عمله، واستعمال الظن في معنى اليقين من المجاز، يقول الطاهر بن عاشور:" والظن يطلق على مراتب الإدراك، فيطلق على الاعتقاد الجازم الذي لا يشوبه شك، كما في قوله تعالى «وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِين * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُون » [1] ويطلق على الاعتقاد المشوب بشك، ويظهر أنه حقيقةٌ في هذا الثاني وأنه مجاز في الأولٌ"[2] ويذكر أيضا أن هذا رأي الزمخشري وجماعة، فيقول" كلام الكشاف يدل على أن أصل الظن علمٌ غير متيقن، ولكنه قد يجري مجرى العلم؛ لأن الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام، وقال: يقال: أظن ظنًا كاليقين أن الأمر كيت وكيت، فهو عنده إذا أطلق على اليقين كان مجازًا، وهذا أيضا رأي الجوهري وابن سيده والفيروزآبادي"[3] .

والسؤال: من أي أنواع المجاز هو؟ والجواب بأنه من قبيل الاستعارة التصريحية؛ فقد شُبه الاعتقاد الجازم أو اليقين بالظن ثم حذف المشبه وبقي المشبه به، والداعي إلى ذلك الإجراء البلاغي في الحديث هو إخراج المقطوع بحصوله في صورة الراجح كراهيةً له وخوفًا من تبعاته، وكأن التعبير وإن لم يأت على لسان الرجل يتحسس خلجات نفسه ويكشف عن مكنون صدره.

وقوله في رواية البخاري الثانية: فلما حضرت الوفاة قال لبنيه: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب. قال: فإنه لم يبتئر أو لم يبتئز عند الله خيرا، وإن يقدر الله

(١) سورة البقرة: آية: ٤٥، ٤٦.

(٢) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد: الدار التونسية للنشر – تونس– ١٩٨٤م، ١١/١٦٥.

(٣) السابق: ٢٩/١٣٢.

عليه يعذبه، جاء فيه البعد النفسي ليفسر سبب سوء ظن الرجل في عمله، واعتقاده فيما سيلاقيه إن قدر الله عليه.

وابتداء الكلام بالسؤال: أي أب كنت لكم؟ فيه حملٌ للأبناء على الطاعة، وذاك الحمل أفيد من عدة أشياء:

أولها: السؤال دون الإخبار، فالرجل يريد أن ينتزع من فم أبنائه الإقرار بخيريته؛ ليرتب على ذلك الإقرار وجوبَ الطاعة، وكأن الأمر: ما دمتم قد أقررتم بخيريتي فلتكن طاعتكم لي فيما آمركم به جزاء تلك الخيرية.

إن المعنى الذي قدمه الأسلوب الإنشائي كان من الممكن أن يقدم في صياغة خبرية، فيقال: كنت خير أب لكم، لكنه حينها كان سيفتقد إلى بلاغة استدراج المخاطب ومن ثم إلزامه بما يقتضيه ذلك الاستدراج، ففرقٌ بين أن يخبر الرجل بخيريته وأن يقر أبناؤه بذلك.

وثانيها: ذكر كلمة (الأب) في السؤال، وما يقتضيه ذلك من التذكير بحقوق الآباء على الأبناء، ومنها الطاعة من غير شك.

إن البلاغة هي فن الاختيار بين البدائل، والبدائل المتاحة كثيرة، حيث كان من الممكن أن تكون صياغة السؤال: أي رجل كنتُ؟ أو: كيف عرفتموني؟ أو: ماذا تقولون في؟ أو غير ذلك من البدائل التي تفتقر إلى وقع كلمة (الأب) وما تثيره من الحقوق والواجبات.

وثالثها: اللام الدالة على الاختصاص في الجار والمجرور (لكم) فالخطاب للأبناء، ومعلومٌ أن الأبوة تخصهم، ولو قال: أي أب كنت؟ لما انصرفت الأبوة إلا إليهم، وعليه فذكر الاختصاص يمكن الاستغناء عنه في الظاهر، لكن النص على اختصاص الأبوة بهم وانصراف خيريتها إليهم دون غيرهم فيه إثارةٌ وحثٌ وتحريضٌ.

وجواب الأبناء (خير أب) يحتمل إعرابين، أولهما: الرفع على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتقدير: أنت خير أب، وثانيهما: النصب على أنه خبرٌ لكان، والجواب:

كنت خير أب، وفي كلا الإعرابين حذفٌ تطلبه الإسراع إلى المطلوب؛ فالأبناء مراعاةً منهم لنفسية أبيهم المتلهفة إلى الجواب بادروا بذكر ما يترقبه الأب.

ويأتي الالتفات من التكلم في قوله: أي أب كنت لكم؟ إلى الغيبة في قوله: فإنه لم يبتئر عند الله خيرا، ليكشف عن كراهية الرجل لما كان منه، وامتعاضه من أن ينسب الفعل إلى نفسه.

والابتئار: الادخار، والبئيرة على وزن فعيلة: الحفرة[1]، واستعماله في الخير مجازٌ؛ فقد شُبه الخير الذي يعمله الإنسان سرًا بالذخيرة التي تخبئ في الأرض بجامع الإخفاء في كل.

إن الاستعارة التبعية في الفعل يبتئر كشفت للأبناء سر أبيهم؛ فإذا كان الأبناء يعلمون ظاهر أحوال آبائهم فإن الاستعارة التبعية جاءت لتلحق الباطن بالظاهر، وتكشف للأبناء الخفي من أحوال أبيهم.

ونُكرت كلمة (خيرا) للتقليل، والمعنى: لم يدخر ولو شيئًا قليلًا من الخير يتكئ عليه عند لقاء الله عز وجل.

إن التنكير وما أفاده من تسليط النفي على قليل الخير فضلًا عن كثيره مهمٌ جدًا في هذا السياق؛ فهو يقدم التبرير لطلب الأب الغريب (الحرق والسحق والذرو) ويحمل الأبناء على الاستجابة بغيةَ تخليص الأب المجرد من الخير من العذاب المحتم.

ولأجل هذين المطلبين أيضا: التبرير للطلب وحمل الأبناء على الفعل، كان التأكيد بـ (إن) والنفي بـ (لم) أما التأكيد فجاء ليقطع توهم المبالغة، فربما ظن الأبناء لو تجرد الكلام من التأكيد أن أباهم يخرج الكلام مخرج المبالغة والتزيد.

(١) لسان العرب: ابن منظور: مادة: ب أ ر.

وأما النفي فجاء بـ (لم) دون أختيها النافيتين مثلها للمضارع (لما، ما) ؛ لأن المنفي معها لا يقتصر على الماضي فحسب، فأحيانا يتصل بالحال، وأحيانا يكون مستمرا أبدا[١]، كما أن منفيها لا يتوقع حصوله[٢]، أما منفي (لما) فزمنه إلى حال التكلم فحسب، ومتوقع الحصول[٣]؛ فإذا قيل: لما يبتئر عند الله خيرا، فالمعنى: لما يفعل بعد ومتوقعٌ منه أن يفعل، وإذا كان فعل الخير متوقعًا في المستقبل فما من داعٍ للحرق والسحق والذرو؛ فالأعمال بالخواتيم، وأما (ما) فإنها لنفي الحال، يقول سيبويه:" وإذا قال: هو يفعل، أي: في حال فِعْلٍ، فإن نفيه: ما يفعل"[٤] وعليه فلو جاء النص: فإنه ما يبتئر، فإن نفي الابتئار يكون في الحال فحسب، والماضي والمستقبل مسكوتٌ عنهما، والمعنى المقصود بخلاف ذلك.

وتقديم المتضايفين (عند الله) على المفعول (خيرا) تخصيصٌ للجهة التي فقد فيها عمل الخير؛ حيث قُصر عدم ابتئار الخير على جانب الله عز وجل، فالرجل أحسن إلى بنيه حتى وصفوه بأنه خير أب ولكنه لم يحسن في جانب الله الإحسان نفسه ولا شيئًا منه.

وقد يقال: أليس الإحسان إلى الأبناء من أعمال الخير التي يُتقرب بها إلى الله؟ والجواب أن ذلك متوقفٌ على نية المرء؛ فربما أحسن الوالد إلى أولاده من قبيل العادة وما تقتضيه طبيعة الأشياء، وليس من قبيل أنه مأمورٌ بذلك من الله تعالى.

---

(١) ينظر: شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب: ابن هشام، ومعه كتاب: منتهى الأدب بتحقيق شرح شذور الذهب: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع – القاهرة – بدون، ٤٩.

(٢) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية – بيروت – ١٤١١هـ ، ١٩٩١م، ١:/٣٠٨.

(٣) ينظر: السابق: ١/ ٣٠٧، ٣٠٨.

(٤) الكتاب: سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي – القاهرة – الثالثة، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، ١١٧/٣.

وجاء استعمال أداة الشرط (إن) في قوله: وإن يقدر الله عليه يعذبه، في المقطوع بحصوله على خلاف الأصل في استعمالها؛ ليظهر خوف الرجل؛ فقد أخرج قدرة الله وهي مقطوعٌ بحصولها في صورة المشكوك فيه تمنيًا منه أن لو كانت كذلك.

إن ذلك الإجراء البلاغي يكشف عن نفسيةٍ بلغ منها الخوف مبلغًا جعلها تخرج اليقين الذي تحاول الخلاص منه بالإحراق والسحق والذرو مخرج المشكوك فيه.

إن إيثار البعد النفسي في هذا الحديث بمزيد من التفصيل أسهم في الكشف عن مشكلة الشخصية المتمثلة في الخوف من القدوم على الله دون أي عملٍ من أعمال الخير، وهذا الخوف هو ما دعا الشخصية إلى طلب الإحراق من بنيه، وهو نفسه طوق النجاة الذي افتكه من عذاب الله.

وفي ختام هذا الفصل يؤكد البحث على أن الأحاديث محل الدراسة قد ابتدأت كلها بذكر الشخصية قبل الحدث باعتبارها أنموذجا بشريا يمكن تكراره، ولم يسع التعبير النبوي إلى استقصاء الأبعاد المؤطرة للشخصية بل اكتفى بإبراز البعد المؤثر في الأحداث من ناحية، والمتعلق بالقيمة التي يسعى الحديث إلى تقديمها من ناحية أخرى.

وإذا كانت البلاغة العربية قد وسمت الغياب بالبلاغة كما وسمت الحضور حتى قال عبد القاهر عن الحذف: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن"[1] فإن غياب الاستقصاء للأبعاد المؤطرة للشخصية من ذلك القبيل؛ فالنص

(١) دلائل الإعجاز: تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني – بالقاهرة – الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م، ١٤٦.

النبوي لم يستهلك طاقة المتلقي في تفصيلات وتفريعات لا فائدة منها، ولا تلعب دورا في تقديم المرادة.

وقد مال التعبير النبوي إلى الإيجاز في تقديمه للشخصية شأنها في ذلك شأن بقية العناصر القصصية الأخرى؛ فالقصص النبوي "يعتمد على السرد الموجز الذي يقدم خلاصات لأحداث من غير تفصيل لجزئياتها أو حديث عن الشخصيات المشاركة فيها"(١).

إن القارئ يمكنه عد الكلمات المستعملة في تقديم الشخصية، لكن ذلك قد تم تعويضه باستثمار الألوان البلاغية التي عمقت النص وجعلت الدلالات المتعددة تظهر في المستوى الرأسي لا الأفقي.

(١) خصائص القصة الإسلامية: مأمون فريز جرار، دار المنارة للنشر والتوزيع – جدة – الأولى، ١٩٨٨م. ١١٧.

الفصل الثالث: أثر صورة الشخصية في تشكيل صور العناصر السردية.

الشخصيةٌ عنصرٌ سرديٌ لا يمكن فصله عن بقية العناصر السردية الأخرى إلا في إطار الدرس فحسب وإلا فهي متداخلة مع بقية العناصر الأخرى تداخلًا جعل أحد منظري السرد يقول:" يتحدث الناس غالبا عن هذه الأشياء (يقصد العناصر السردية) كما لو كانت تتمايز عن بعضها تمايزًا داخليًا بدلًا من أن تذوب في بعضها عند كل نَفَس، وبوصفها أجزاء ترتبط ارتباطًا جوهريًا في بعدٍ عامٍ موحدٍ من أجل التعبير ... ما هي الشخصية إن لم تكن ما تقرره الحادثة، وما هي الحادثة إن لم تكن توضيحا للشخصية"(١) .

ومن أجل هذا التشابك والتداخل فإن كل عنصرٍ من العناصر السردية يؤثر على بقية العناصر ويلعب دورًا في تشكيله، لا سيما الشخصية؛ فهي " واسطة العقد بين جميع المشكلات الأخرى؛ حيث إنها هي التي تصطنع اللغة، وهي التي تبعث أو تستقبل الحوار، وهي التي تصطنع المناجاة، وهي التي تنجز الحدث، وهي التي تنهض بدور تضريم الحوار وتنشيطه ... وهي التي تعمر المكان ... وهي التي تتفاعل مع الزمان"(٢) .

وحيث إن البحث معنيٌ بدراسة الشخصية فإنه سيدرس في هذا الفصل أثر الشخصية في العناصر السردية الأخرى، وسطوة ذلك الأثر على الصيغ اللغوية المبرزة لتلك العناصر وما حوته تلك الصيغ من أسرار بلاغية، وذلك في مبحثين:

المبحث الأول: أثر الشخصية في تشكيل صورة الأحداث السردية.

المبحث الثاني: أثر الشخصية في تشكيل صورة الفضاء المكاني والزماني.

---

(١) نظريات السرد الحديثة: والاس مارتن، ترجمة: د. حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨م، ١٥٢. ؛

(٢) في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد: د. عبد الملك المرتاض، عالم المعرفة – الكويت – ١٤١٩هـ، – ١٩٩٨م، ١٠٣ ، ١٠٤.

المبحث الأول: أثر الشخصية في تشكيل الصورة البلاغية للأحداث السردية.

الحدث هو فعل الشخصية، رئيسةً كانت أو ثانويةً، وهو محكومٌ بطبيعة تلك الشخصية وتكوينها على كافة المستويات؛ حيث يأتي انعكاسًا للأبعاد التي سبق أن قدمها النص، وهذا ما دعا عددًا من النقاد إلى القول بسيادة الشخصية على الحدث، أو وصف الشخصية بأنها مستوى الفعل الأعلى(١).

وهذا الارتباط بين صورة الشخصية وفعلها ظهر جليًا في البنى والصور التي قدمت الأحداث السردية، ففي قوله- ﷺ -: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ، فَجَزِعَ، فَأَخَذَ سِكِّينًا فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ، فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حَتَّى مَاتَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ» (٢) تجد أن الشخصية قُدمت للمتلقي من خلال بعدين: بعد مادي يتمثل في بيان جنس الشخصية (رجل) وصفة جسدية (به جرح) وبعد نفسي يتمثل في بيان عدم الصبر والاحتمال (فجزع) .

والحدث الذي قامت به الشخصية هو قطعها للألم بقتل نفسها، وتمثل في قوله: فأخذ سكينا فحز بها يده.

وصورة الحدث من ناحية البنية اللغوية والألوان البلاغية فيها تأتي وفق مقتضيات طبيعة الشخصية كما عرفها المتلقي من خلال البعدين المشكلين لها؛ فالفاءات التي دخلت على أفعال الحدث (فأخذ، فحز) بما فيها من دلالةٍ على السرعة والتتابع عكست قلة الصبر والاحتمال الذي اتصفت به الشخصية.

الفعل (أخذ) كذلك يدل ببنيته الثلاثية وحركاته المتتابعة التي لا يتخللها سكونٌ على العجلة والسرعة، وتستطيع أن تتلمس تلك الدلالة بوضوح حين تستبدله بفعلٍ

(١) قال بذلك بارت، وتوماشيفسكي، وغيرهم، وينظر في ذلك: نظريات السرد الحديثة: والاس مارتن، ١٥٢.

(٢) سبق ذكره.

قريبٍ منه في الدلالة كالفعل (تناول) الذي يوحي إليك بحروفه الخمس والمد الذي يتوسط تلك الحروف بالتمهل والأناة.

وتنكير كلمة (سكينا) في قوله: فأخذ سكينًا، يبين أن الرجل لقلة احتماله وعجلته لم يعتن بالآلة التي سيقتل بها نفسه، فلم يأخذ وقته في البحث عن سكينٍ حادٍ مثلًا يسهل عملية القتل، فضلًا عن أن يختار طريقةً أخرى أقل قسوة لإنهاء الحياة.

إن التنكير حال إطلاقه يدل على أحد شيئين: الجنس أو الوحدة، قال العلوي:" في نحو قولك: رجل، وفرس، وأسد، ففيها دلالة على أمرين: الوحدة، والجنسية، فالقصد يكون متعلقا بأحدهما، ويجيء الآخر على جهة التبعية، فأنت إذا قلت: أرجل في الدار أم امرأة، حصل بيان الجنسية، والوحدة جاءت تابعة غير مقصودة، وإذا قلت: أرجل عندك أم رجلان، فالغرض ههنا الوحدة، دون الجنسية"[١] وتنكير كلمة (سكينا) تنكيرٌ مطلقٌ لم يقدم للمتلقي أكثر من الدلالة على جنس الآلة المستعملة؛ ليرسخ عنده الصورة التي سبق أن رسُمت للشخصية من خلال دلالة (الفاء) ومادة الفعل في قوله: فجزع.

وقد انعكس الاختيار المتعجل لآلة القتل على فعل القتل نفسه؛ فآثر التعبير النبوي أن يستعمل الفعل (حزّ) بدل أضرابه، كأن يقول مثلا: فقطع يده؛ لأن الحز: قطعٌ في علاج[٢]، وهو بهذا المعنى يستلزم مدةً تقتضيها رداءة الآلة المختارة.

وحين تأتي إلى الإضافة في قوله : فحز بها يده، تجد أنها صورت مقدار الجزع الذي بلغه الرجل؛ فاليد يده ومع ذلك حزها طلبًا للموت وفرارًا من الألم الذي لم يطقه.

(١) كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: طبع بمطابع المقتطف بمصر، ١٣٢٢هـ - ١٩١٤م، ١٢/٢.

(٢) ينظر: لسان العرب: ابن منظور، مادة: حزز.

وفي حديث الرجل الذي أمر أولاده بإحراقه بعد موته لأنه لم يعمل خيرًا قط بين البحث – فيما سبق – أن البعد المسيطر في الكشف عن الشخصية، والمؤثر في الأحداث، والحامل للفائدة السردية هو البعد النفسي المتمثل في شدة الخوف من الله تعالى.

وقد انعكس هذا البعد على الأحداث السردية فتشكلت صورتها وفق مقتضاه في كل روايات الحديث.

ولبيان ذلك سيقف البحث مع روايةٍ واحدةٍ من روايات الحديث المتعددة، وهي قوله –ﷺ–: «إِنَّ رَجُلًا كَانَ قَبْلَكُمْ، رَغَسَهُ اللَّهُ مَالًا، فَقَالَ لِبَنِيهِ لَمَّا حُضِرَ: أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ، قَالَ: فَإِنِّي لَمْ أَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَإِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، فَفَعَلُوا، فَجَمَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ، فَتَلَقَّاهُ بِرَحْمَتِه»"[(١)] .

والحدث السردي في هذا الحديث جاء في قوله –ﷺ – على لسان الرجل: فإذا مت فاحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في يوم عاصف.

والبنية اللغوية لذلك الحدث تعكس البعد النفسي المتمثل في شدة الخوف من الله تعالى؛ فقد ابتدأ الرجل بقوله: فإذا مت، فاستعمل أداة الشرط (إذا) وهي تفيد الجزم بوقوع شرطها، أي إن الرجل موقن بالموت وما بعده قولًا واعتقادًا.

وقد تقول: وهل هناك من يشك في أنه يوما ما سيفارق الحياة!!

والجواب: إن الأمر وإن كان كذلك لكن الناس لفرط تعلقهم بالحياة وكراهيتهم للموت ينزلون ذلك المقطوع بحصوله منزلة المشكوك فيه، ويعكسون حالتهم تلك باستعمال أداة الشرط (إن) في حديثهم عن الموت، تجد ذلك في قول طرفة بن العبد

(١) صحيح البخاري: باب: حديث الغار، حديث رقم:٣٤٧٨.

البكري[١]:

فَـإِنْ مُـتُّ فَـانْعِينِي بمَـا أنَـا أهلُـهُ وَشُـقِّي علـيَّ الجَيْـبَ يَـا ابنـةَ مَعْبَـدِ

وقول عبد الله بن المعتز[٢]:

فَـإِنْ مُـتُّ فَـانْعِينِي إلـى المَجْـدِ والتُّقَـى وَلَا تَخْزِنِـــي دمعًـــا إذا قَـــامَ نَـــايِحُ

وقول عبيد الله بن قيس الرقيات[٣]:

فَـإِنْ مُـتْ لـمْ يُوصَـلْ صَـدِيقٌ ولـمْ تقُـمْ ســبيلٌ مِــنَ المْعــرُوفِ أنــتَ مَنَارُهَــا

وغير ذلك كثير، لكن الرجل هنا على خلاف ذلك ينزل الموت منزلته، بل ويتجاوز مسألة حب الموت وكراهيته إلى التفكير فيما يكون بعده من لقاء الله والعذاب الذي ينتظره جراء أعماله التي قدمها.

وقد يقال: ألم تكن شدة الخوف من لقاء الله تقتضي من الناحية البلاغية أن ينزل الرجل الموت المقطوع بحصوله منزلة المشكوك فيه كراهيةً له وخوفًا من حصوله وحصول ما بعده من العذاب؟؟

والجواب: إن ذلك يكون في سياقٍ آخر، كأن يتحدث الرجل عن الموت والعذاب فحسب، فيقول: إني لم أبتئر عند الله خيرًا، وإن أمت يعذبني الله، لكن السياق هنا يقدم رجلًا يتجاوز الموت إلى البحث عن حيلة يدفع بها ما يكون من العذاب بعد الموت؛ ولذا أنزل الموت منزلته ثم انطلق إلى وضع الخطة التي يبني

(١) ديوان طرفة بن العبد البكري: شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق: درية الخطيب، لطفي الصقال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – الثانية، ٢٠٠٠٠م، ٥٦.

(٢) ديوان أشعار الأمير أبي العباس عبد الله بن المعتز: دراسة وتحقيق: د. محمد بديع شريف، دار المعارف – مصر – بدون، ٢٤٦/١.

(٣) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: تحقيق وشرح: د. عزيزة فوال بابتي، دار الجيل – بيروت – الأولى، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م، ١٢٠.

عليها الخلاص من العذاب.

انعكس الخوف من الله أيضا على أدوات العطف المستعملة في ترتيب جزئيات الحدث؛ فقد دخلت (الفاء) على فعل الإحراق، ودخلت (ثم) على فعلي السحق والذرو، ولكل أداة في موضعها بلاغتها؛ فالفاء التي تدل على الترتيب والتعقيب دخلت على فعل الإحراق حتى تقضي على وجود فاصلٍ زمنيٍ بينه وبين الموت، وذلك لأمرين:

الأول: القضاء على أي فرصة للتشاور في أمر وصية الوالد؛ فلو ظل الجسد فترةً بعد الموت بلا إحراق لربما فكر الأبناء في بشاعة ما هم مقبلون عليه فعدلوا عنه.

الآخر: خوف الرجل من بقاء الجسد سالمًا ولو كان ذلك لفترةٍ بسيطة فيحصل العذاب؛ فالرجل ربط بين سلامة الجسد والعذاب؛ ولذا قامت خطته في تجاوز العذاب على محو هذا الجسد وتدميره.

وأما حرف العطف (ثم) فيفيد الترتيب والتراخي، وقد دخل على فعل السحق ليفصله عن فعل الإحراق بفاصل زماني.

إن الرجل أراد أن يعطي النار وقتًا لتحرق الجسد حرقًا كاملًا فلا يبقى منه شيءٌ، ويستطيع المتلقي أن يعرف مقدار هذا الوقت من قول الرجل في رواية[١] ثانية: فإذا مت فاحرقوني حتى إذا صرت فحمًا فاسحقوني، وقوله في رواية[٢] ثالثة: حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحشت فخذوها فاطحنوها، فهو يريد أن تستمر عملية الإحراق إلى أن يتفحم الجسد ويمتحش العظم.

وأدخل (ثم) أيضا على فعل الذرو؛ لأنه أراد أن يعطي الوقت للسحق كما أعطاه للإحراق، فلا يترك الأولاد في جسده ذرة على ذرة، حتى إذا ما نثروه في

(١) ينظر: صحيح البخاري، كتاب: الرقاق، باب: الخوف من الله، حديث رقم: ٦٤٨١.

(٢) ينظر: السابق: كتاب: أحاديث الأنبياء صلوت الله عليهم، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم: ٣٤٥٢.

الهواء تطايرت أجزاؤه في كل مكان.

إن غاية الرجل أن يتمهل الأولاد في الحرق وأن يتمهلوا في السحق حتى يضمن تلاشي الجسد تلاشيا كاملا علَّ ذلك يحول بينه وبين العذاب.

فرض البعد النفيس سطوته كذلك على مادة الأفعال المختارة؛ فالرجل لفرط خوفه من الله تعالى اختار الفعل (سحق) بدلًا من أضرابه؛ لأنه يدل على الدق الشديد وليس مجرد الدق، قال ابن منظور: سحق الشيء يسحقه سحقا: دقه أشد الدق، وقيل: السحق الدق الرقيق، وقيل: هو الدق بعد الدق[١] .

واختار فعل الذرو في قوله: ثم ذروني؛ لأنه لم يرد مجرد النثر والبعثرة بل أراد أن تحمل الريح ذرات جسده المسحوق حتى تفرقه في الأرجاء، والذرو هو الذي يقدم هذا المعنى حتى ولو لم تذكر الرياح، قال الخليل: ذرو الريح التراب تحمله ثم تثيبه[٢] ، وقال الزمخشري: الذرو: التطيير والنسف[٣].

وهكذا في كل الأحاديث محل البحث تُرسم صورة الأحداث السردية على هدي من طبيعة الشخصية المقدمة، وفي ضوء الأبعاد التي تحدد معالمها.

وجدير بالذكر أن التحليل البلاغي لصورة الأحداث السردية بين الدور الفاعل الذي أدته الألوان البلاغية في تحقيق المواءمة المنشودة بين الشخصية وما يصدر عنها.

---

(١) لسان العرب: مادة: سحق.

(٢) ينظر: كتاب العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بدون، باب الذال والراء والواو معهما.

(٣) ينظر: الفائق في غريب الحديث والأثر: تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة – لبنان – الثانية، بدون، ١٧/٢.

المبحث الثاني: أثر الشخصية في تشكيل الصورة البلاغية للفضاء المكاني والزماني.

الزمان والمكان هما الوعاء الضام للشخصيات وما يصدر عنها من أحداثٍ، فكل فعلٍ صادر عن الشخصية محكومٌ بعاملي الزمان والمكان، وهو ما يفرض من الناحية الإجرائية دراسة ذلك الوعاء بلاغيًا وبيان أثر الشخصية – كما قدمها النص – في تشكيله.

والمكان والزمان في النقد السردي لهما تصوراتٌ عديدةٌ، ومن ثُم جوانب مختلفة للدراسة؛ أما المكان فتم تقسيمه عند بعض النقاد إلى مجازي، وهندسي، ومعادي(١)، وقسمه بعضهم – بعد أن استبدل مصطلح الفضاء بمصطلح المكان – إلى أربعة أقسام: الفضاء الجغرافي، والفضاء النصي، والفضاء الدلالي(٢)، وغير ذلك من التقسيمات، وأما الزمان فدائرة الخلاف فيه لم تقل عن قسيمه، فبعضهم قسمه في العمل السردي إلى ثلاثة أزمنة: زمن المغامرة، وزمن الكتابة، وزمن الكاتب(٣)، وبعضهم ركز على زمنين، هما: زمن فعل السرد، وزمن مادة السرد(٤)، أو بعبارة أخرى: زمن الحكي، وزمن الأحداث المحكية.

(١) ينظر: مضمرات النص والخطاب، دراسة في عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي: سليمان حسين، منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق – ١٩٩٩م، ٢٠٩، وما بعدها.

(٢) ينظر: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي: حميد لحميداني، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – بدون، ٢٦.

(٣) ينظر: تحليل الخطاب الروائي: سعيد ياقطين، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – الثالثة، بدون، ٦٩.

(٤) ينظر: الزمان والسرد: بول ريكور، ترجمة: فلاح رحيم، راجعه عن الفرنسية: د. جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الأولى، ٢٠٠٦م، ٢/ ١٠ ، ١٤.

بيد أن الدراسة دراسةٌ بلاغيةٌ؛ ولذا فهي ستترك كل هذه التصورات جانبًا وستذهب إلى دراسة الصور اللغوية التي ظهر عليها عنصرا المكان والزمان في النص السردي، ما لم يكن لتلك التصورات أثرٌ في تشكيل صورة المكان والزمان.

وعلى الرغم من صعوبة الفصل بين المكان والزمان في تشكيل العمل الفني[1]؛ إذ الزمان يمثل الخط الذي تسير عليه الأحداث والمكان يظهر على هذا الخط ويحتويه[2] لكن البحث بوصفه معنيًا بدراسة المكان والزمان في صورتيهما اللغوية لا الفيزيائية فإنه سيتتبع أثر الشخصية السردية في تشكيل الصور اللغوية للزمان والمكان، اجتمعت تلك الصور في نصٍ واحد أو تفرقت.

ومن النصوص محل الدراسة التي اجتمعت فيها صورتا المكان والزمان، وتأثر تشكيلها بصورة الشخصية وأثرت هي بدورها في تقديم الشخصية وإبراز البعد المسيطر فيها ما جاء عند مسلم أن النبي – ﷺ – قال: « بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللهَ تَعَالَى بِهَا، لَعَلَّ اللهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ، حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ

(١) ينظر: جماليات المكان في النقد الأدبي المعاصر: عبد الله أبو هيف، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، مج (٢٧) عدد (١) ٢٠٠٥م، ١٢٧.

(٢) ينظر: بناء الرواية: سيزا قاسم، دار التنوير للطباعة والنشر، ١٩٨٥م، ١٠٢.

أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ، وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَجِئْتُهَا بِهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، فَفَرَجَ لَهُمْ، وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي، قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا، فَخُذْهَا فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللهُ مَا بَقِيَ»[(١)] .

قدم هذا الحديث ثلاث شخصيات رئيسة، وهي شخصيات مأزومة، وأزمتها في المكان؛ حيث دخلوا غارًا في جبلٍ ثم نزلت صخرةٌ على فم الغار فأغلقته.

وقد ظهرت الشخصيات من خلال أبعاد نفسية، عُوِّل عليها في تفريج الأزمة؛ فظهرت الشخصية الأولى من خلال الكشف عن صفة البر بالآباء، وظهرت الشخصية الثانية من خلال صفة العفة والترفع عن مواقعة المحبوبة بعد القدرة عليها، وظهرت الشخصية الثالثة من خلال صفة التنزه عن أكل مال الغير وإن كثر حتى ملأ واديا، وهذه الأبعاد جميعها تشترك في أنها تقع في دائرة مراقبة الله تعالى وتقواه.

والبحث هنا لن يتوقف مع بلاغة التعبير عن تلك الأبعاد، فذاك أمرٌ لا يتطلبه هذا المبحث، ولكنه سيتوقف مع أثر تلك الأبعاد في تشكيل صورة الزمان

(١) صحيح مسلم: كتاب الرقاق، باب: قصة أصحاب الغار الثلاثة، حديث رقم: ٢٧٤٣.

والمكان من ناحية، ودور الزمان والمكان في تقديم أزمة الشخصيات وأبعادها من ناحية أخرى.

وقد بدأ ظهور المكان مبكرا في الحديث؛ حيث قدم أزمة الشخصيات، وذلك في قوله -ﷺ-: بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم.

والتعبير النبوي استثمر الألوان البلاغية في تشكيل صورة المكان حتى تخرج أزمة الشخصيات في أعتى صورها، وتقطع كل أمل في الخلاص إلا الأمل في الله عز وجل؛ وأول ذلك هو النص على عدد الشخصيات، فهم ثلاثةٌ فحسب، وهو عددٌ قليلٌ لا يتصور معه التعويل على القوة البدنية في دفع الصخرة.

إن التعبير النبوي عن القصص تعبيرٌ مقتصدٌ وموجزٌ ولا يجنح إلى التفصيلات، لكن النص على عدد الشخصيات هنا تفصيلةٌ مهمةٌ؛ إذ تشكل ملمحا من ملامح الأزمة، ولذا اقتضت البلاغة ذكرها.

وتفصيلةٌ أخرى لا تقل أهميةً عن تفصيلة العدد، وهي النص على مشي الشخصيات في قوله: يتمشون، وهي تفصيلةٌ تقطع الصلة بين الشخصيات وبين العالم الخارجي؛ فلو كانوا يركبون دوابًا ثم تركوها ودخلوا الغار وانسد عليهم لربما استدل الناس على وجودهم بوجود الدواب، إنها تفصيلةٌ تقطع حتى الأمل الضعيف في الأسباب الأرضية وتحتم عليهم التعلق بالأسباب السماوية.

ومن أجل تعميق الأزمة آثر التعبير النبوي أن يضعّف الفعل ويكثر حروفه، فقال: يتمشّون، ولم يقل: يمشون، حتى يطيل المسافة التي قطعوها، ويبعد الجبل عن العمران؛ فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى[1]، ومشيٌ كثيرٌ يعني مسافةً أطول.

(١) ينظر: الخصائص: ابن جني، تحقيق: د. محمد علي النجار، دار الكتب العلمية، بدون، ٢٦٨.

وجاءت الاستعارة المكنية في قوله: أخذهم المطر؛ لتحتم حصول الأزمة؛ فالأخذ هو الحبس والمنع، ومنه قيل للأسير أخيذ(١)، ولو تغير التعبير فقيل مثلا: فأصابهم المطر، لما دل ذلك على حبس أو منع، ولما أدى إلى حتمية الأزمة، فمجرد حصول المطر لا يمنع السير ولا يحبس المسافر إلا أن يكون مطرا قويا ذا سطوةٍ آخذةٍ كسطوة الآسر على أسيره.

وذِكر الجبل في قوله: فأوو إلى غار في جبل، نصٌ على معلوم غايته إضفاء الوحشة والقتامة على المكان السردي؛ فالغار لا يكون إلا في جبل، ولو سكت عنه النص السردي وطواه التعبير لعرفه المتلقي، لكن ظهور الكلمة وقرعها للأذن يحمل السامع على استحضار القسوة والانقطاع وبعد الحضر وقلة البشر، ويقطع الأمل في إمكانية حصول الفرج عبر الاستغاثة بالبشر، وهو ما أدركته الشخصيات السردية وعبرت عنه بقولها في رواية عند البخاري: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم(٢) .

وتنكير الغار والجبل في قوله: فأوو إلى غار في جبل، له زاويتان بلاغيتان:

الأولى: أن التعريف لا تتعلق به فائدةٌ فتُرك تخليصا للنص القائم على الكثافة والاختصار مما لا فائدة منه.

الآخرة: أن التنكير بما فيه من طمسٍ للمعالم وإبهامٍ للمكان يتفق مع أجواء الأزمة القائمة في الأصل على استحالة وصول البشر إلى هؤلاء المحبوسين وتخليصهم.

(١) ينظر: لسان العرب: ابن منظور، مادة: أخذ.

(٢) ينظر: صحيح البخاري: كتاب الإجارة، باب: من استأجر أجيرا فترك أجره، حديث رقم:٢٢٧٢.

وقد يقال: إن تعريف مفردات المكان لن يغير الواقع في شيء، فلو قال مثلا: فأووا إلى غار كذا في مكان كذا، لظلت الأزمة كما هي ما دام هذا المكان مجهولًا للمعاصرين لمن انسد عليهم الغار.

وهذا صحيحٌ، لكن التنكير يسوي بين المعاصرين لمن انسد عليهم الغار والمتلقين للنص السردي في جهل الجميع بالمكان، وهو ما يقطع التعلق بالأسباب الأرضية عند الجميع على حد سواء، فلو عَرضت الأزمة بصيغة التنكير ثم توقفت وقلت للمتلقي: كيف يمكن تخليص هؤلاء، لأجابك باستحالة الخلاص لأنه لا يُعرف شيءٌ عن الغار والجبل، ولو غيرت الصيغة فقلت مثلا: فأوو إلى غار كذا في جبل كذا، ثم توقفت وسألت المتلقي: كيف يمكن تخليص هؤلاء، فلربما قال لك: إن هذا الغار قريب من طريق مأهول، ولو استغاث هؤلاء لأمكن أن يسمعهم أحد المارة ويخلصهم.

إن التنكير يخلق بين الجميع داخل الفضاء السردي وخارجه حالةً من المشاركة الوجدانية تتمثل في استحالة التعلق بالأسباب البشرية لتحقيق الخلاص.

وفي قوله: فانطبقت على فم غارهم صخرةٌ فانطبقت عليهم، استعارةٌ مكنيةٌ؛ حيث شُبه الغار بمفترسٍ ضخمٍ له جوفٌ وفمٌ.

والاستعارة المكنية تجسد واقع الشخصيات المأزوم، فهم في جوف مفترسٍ، وطريق الخلاص يمر عبر فمه، وهذا الفم قد أُغلق بصخرة لا يمكن دفعها.

وقد نكر التعبير النبوي كلمة (صخرة) ليعكس ضخامتها وعظمتها، وذلك حتى يقطع على المتلقي التفكير في إمكانية دفعها أو تحطيمها.

وعبر بالانطباق في قوله: فانطبقت عليهم؛ ليبين أن الصخرة لم تترك ولو فُرجة صغيرة يدخل منها الضوء ؛ فالطبق: كل غطاء لازم على الشيء، وطبق كل شيء ما ساواه، وطبقه انطبق وتطبق: غطاه وجعله مطبقا(١).

وفي قوله: فانطبقت عليهم. مجاز مرسل علاقته الحالّية، حيث أطلق الحالّ وهم الشخصيات وأراد المحل وهو الغار؛ والسر في التعبير به أنه أراد أن يبين ما هم فيه من كرب وضيق فجعل انطباق الصخر عليهم، وكأنهم يرزحون تحت ثقلها.

هذا إذا دور المكان في تقديم أزمة الشخصيات، وقد وضح التحليل البلاغي أثر الألوان البلاغية في تصوير تلك الأزمة وتعميقها وتهيئة المتلقي لمتابعة الأحداث السردية حتى يتعرف على كيفية الخلاص من تلك الأزمة، وهو ما سيكشف له عن دورٍ آخر للزمان والمكان في تقديم الشخصيات والكشف عن أبعادها، فقد ظهرت الشخصية الأولى في قوله – ﷺ –: فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ، حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً.

والبعد الذي قدم الشخصية هنا هو البعد النفسي المتمثل في البر بالآباء، وقد انعكست الرغبة في إظهار هذا البعد على تشكيل صورتي الزمان والمكان في النص من ناحية، وأسهمت صورتا الزمان والمكان في تقديم ذلك البعد من ناحيةٍ أخرى؛ ففي قوله: فقمت عند رؤوسهما، وقوله: والصبية يتضاغون عند قدمي، وقوله: فلم

(١) ينظر: لسان العرب: ابن منظور، مادة: طبق.

يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، أبرز النص على المكان والزمان عظم صفة البر.

إن النص على وقوف الرجل عند رأسي أبويه يظهر حالةً من الترقب والانتظار لاستيقاظ الوالدين حتى يشربا غبوقهما.

وتأمل النص على الرأس، فلم يقل: فقمت عندهما؛ لأن الولد يترقب انفتاح العينين، وهما في الرأس ولذا وقف قريبا منهما.

وقال: فقمت عند رأسهم، ولم يقل: وقفت؛ لأن "القيام يقتضي الدوام والثبوت بخلاف الوقوف، تقول: وقف الحاج بعرفة، ولا تقول: قام"[(١)].

إن إغفال النص على المكان والاكتفاء بالتصريح بانتظار صحو الأبوين، كأن يقول: فانتظرت صحوهما، يقدم نوعًا من البر لكنه لا يصل أبدًا إلى درجة البر الذي أبرزه القيام عند رأس الأبوين وترقب صحوهما.

ولا يقل النص على مكان تضاغي الصبية في قوله: والصبية يتضاغون عند قدمي، عن سابقه في تعظيم صفة البر؛ فالصغار بين قدمي أبيهم يرى دمعهم، ويسمع صراخهم، ويعاين تلويهم من الجوع، ثم لم يمنعه ذلك كله من انتظار أبويه والبدء بشربهما.

وانظر إلى تعبيره بالصبية، وهم الأطفال الصغار، ولهم من رقة الأب ما ليس لغيرهم، وتعبيره بالتضاغي، وهو لا يدل على مجرد البكاء والصراخ فحسب بل يضيف إلى ذلك التذلل والقهر[(٢)]، ثم اقرن ذلك كله بالمكان تحت قدمي الأب يستبين لك تشظي القلب بين بين الوالدين والأولاد.

---

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة: عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب – القاهرة –السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ١/٢٥.

(٢) ينظر: كتاب العين: الخليل بن أحمد، باب الغين والضاد.

والنص على الزمان في قوله: فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، يعكس للمتلقي تصميم الرجل على ما اعتاده من البدء بسقيا الوالدين، فقيام الرجل عند رأس والديه النائمين، وتضاغي أولاده عند قدميه، لم يلبث ساعة أو اثنتين بل استمر إلى طلوع الفجر، وهو وقت استيقاظ الأبوين.

إن النص على الزمان هنا يعكس برا خاصا؛ فكثيرٌ من القيم التي ندعيها تنهار حين يختبرها الزمن ويمحصها الصبر، فالعزائم تحمل أهلها على اتخاذ مواقف نبيلة، وهذا شائع، لكن النادر ألا تتغير القناعات بتقادم الزمان وتراكم الضغوط.

أما الشخصية الثانية فقد ظهرت في قوله – ﷺ –: وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَجِئْتُهَا بِهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ عَنْهَا.

والبعد المسيطر في تقديم الشخصية هو البعد النفسي المتمثل في العفة والامتناع عن مواقعة المحبوبة بعد القدرة عليها، وقد ساهم النص على المكان في إبراز هذا البعد في قوله: فلما وقعت بين رجليها؛ فالرجل أحب ابنة عمه كأشد ما يحب الرجال النساء، وقد راودها عن نفسها فأبت، ثم اضطرها الزمان وأحوجها فوافقت مضطرة على أن يعطيها مالا تستعين به على ما هي فيه – كما يظهر الجمع بين الروايات – فجمع لها المال بعد لأي، فأمكنته من نفسها حتى قعد بين رجليها وتحققت قدرته عليها، ورأى منها ما انتظره زمانا طويلا ودفع فيه ثمنا كبيرا، ثم ذكرته بالله فقام عنها.

وانظر إلى الاستعارة التبعية في قوله: فلما وقعت بين رجليها؛ حيث الأصل: فلما جلست بين رجليها، وما فيها من الدلالة على تحقق القدرة على الجماع، فالوقوع في الأصل مجازٌ دالٌ على المباضعة، قال الزبيدي: "ومن المجاز: واقع المرأة:

باضعها وخالطها"[١]، واستُعمل هذا المجاز في مجاز آخر، فعُبر به عن الجلوس أو القعود بين رجلي المرأة بجامع الهيئة والحالة التي يكون عليها من يجلس بين رجلي المرأة ومن يجامعها، والغرض من ذلك هو الكشف عن اللحظة، والهيئة، والصورة التي كان عندها الكف عن الوقوع في الحرام؛ فالاستعارة هنا أنزلت محقق الحصول في المستقبل منزلة الحاصل بالفعل، ومن ثم أعلت من قيمة الانصراف عنه.

إن النص على المكان هنا يظهر التعفف والخوف من الله تعالى في أعظم صورة، ففرق كبير بين أن يمتنع الرجل عن امرأة أحبها وهي بعيدة عنه، وبين أن يمتنع عنها وهي تحته يرى منها وترى منه؛ ولذا قال الطيبي:" هذا المقام أصعب المقامات وأشقها؛ فأنه ردع لهوى النفس خوفاً من الله تعالى ومقامه"[٢].

وهكذا يستبين أن صورة الشخصية قد تركت أثرها على المكان والزمان؛ فتشكلت صورتاهما تشكيلًا خاصًا يبرز أبعاد الشخصية ويرسم ملامحها.

والألوان البلاغية التي احتشدت في صورتي المكان والزمان لم تقم بدورها الدلالي والجمالي في تقديمهما فحسب، بل أعادت المتلقي إلى الشخصية المقدمة، وذكرته دومًا بصورتها والبعد الأظهر فيها.

(١) تاج العروس من جواهر القاموس: تحقيق الجزء المنقول منه: مصطفى حجازي، راجعته لجنة فنية من وزارة الإعلام، مطبعة حكومة الكويت، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، ٣٦٤/٢٢.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن): تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة المكرمة – الأولى، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م، ٣١٧٠/١٠.

خاتمة

- الأحاديث النبوية الشريفة محل البحث اتفقت في اعتمادها على فاتحة سردية مثلت لازمةً تركيبيةً من لوازم بنية تلك الأحاديث.
- تعددت النواحي البلاغية في اللازمة السردية ؛ حيث شكل نوعها، وبنيتها، وموقعها، ودلالتها على الأزمان السردية، ونوع وبنية القصة بعدها، وجوها بلاغية تركت أثرها على النص ومتلقيه.
- عكس الافتتاح بالجملة الخبرية وعيًا بطبيعة السرد واحتياجاته الأسلوبية.
- جاء الاسم الموصول (من) في اللازمة السردية محددا لطبيعة الشخصيات السردية المحدثة، وانعكس ذلك التحديد على تمكين القيمة المسوقة في نفوس المتلقين.
- أظهر التأويل البلاغي لتكرار الفعلين (كان –كان) بعدا موسيقيا قائما على الجناس أو الترديد.
- الازدواجية الزمنية في اللازمة السردية تركت أثرها على الأحداث المقدمة والشخصيات الفاعلة من ناحيتي الواقعية وتحويل القيم الخاصة إلى قيم عامة ، وهو مطلب من مطالب التشريع الذي يسعى إلى استثمار ظاهرة الاقتداء أو الاعتبار بمن سبق.
- العناية التعبيرية باللازمة السردية، وكذا صورة الشخصية، حققت الإثارة والتشويق، ودفعت المسرود لهم إلى متابعة السرد.
- صددت صياغة اللازمة السردية نوع القصة بعده منذ لحظة التلقي الأولى، وأصبح المتلقي على وعي تام بما هو مقدم عليه قبل أن يقرأ.
- الشخصيات المقدمة في الأحاديث محل البحث شخصيات حقيقة وهو ما انعكس على المتلقين على مستويات عدة، ومنها تجاوز الأثر الفني إلى التصديق والتأسي.
- شغل تقديم الشخصية السردية في الأحاديث محل البحث مساحةً كلاميةً قليلةً؛ لأن القصة النبوية بوصفها مدونةً سرديةً تنتمي إلى منظومة السرد

الشفاهي الذي يعتمد في تداوله على حافظة المتلقي، وهو ما يجعل الإيجاز مطلبًا بلاغيًا تتوقف عليه سيرورة النص.

- لم يستقص النص النبوي في الأحاديث محل البحث أبعاد الشخصية السردية، بل اكتفى بالتركيز على البعد الذي يتوقف عليه إبراز القيمة المراد تقديمها.
- نكر التعبير النبوي الشخصيات المقدمة حتى يصرف أذهان المتلقين إلى فعلها المنطوي على الفائدة والمقصود بالمعرفة.
- سمحت اللغة الكثيفة التي قدمت الشخصية في التعبير النبوي باستثمار الألوان البلاغية إلى أقصى درجةٍ ممكنةٍ، كما أدت الألوان البلاغية دورًا محوريًا في تحقيق الكثافة النصية، ونشأ عن تلك العلاقة نصٌ ذو طابعٍ فريدٍ يتمدد دلاليًا على المستوى الرأسي لا الأفقي محققًا ما وصفه النبي – × – بجوامع الكلم.
- المفردات التي اعتمد عليها النص النبوي في تقديم الشخصيات مفرداتٌ متعددة الدلالات لا تكتفي بتقديم أصل المعنى، وهو ما يجعل المفردة الواحدة قابلة للقراءة البلاغية أكثر من مرة.
- أظهر التحليل البلاغي أن التعبير النبوي مزج بين الألوان البلاغية فلم يعتمد على لون بلاغي بعينه وإن كان التعبير الحقيقي أكثر وجودا.
- تتشكل صورة الأحداث السردية وفق طبيعة الشخصية المقدمة، وقد أدت الألوان البلاغية دورًا عضويًا في تحقيق ذلك؛ حيث اعتمد عليها التعبير النبوي في تحقيق المواءمة بين الشخصية وما يصدر عنها.
- لم تنعكس صورة الشخصية على صورة الأحداث فحسب، بل انعكست كذلك على صورتي المكان والزمان في النص، فبدت العناصر السردية متسقة السبك متشابهة التركيب، وكأنها أفرغت إفراغا واحدا.

فهرس المصادر والمراجع

- **أولا: القرآن الكريم.**
- **ثانيا:**
- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: أبو العباس شهاب الدين القسطلاني، المطبعة الكبرى الأميرية – مصر – السابعة، ١٣٢٣هـ.
- انفتاح النص الروائي: سعيد ياقطين، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – الثانية، ٢٠٠١م.
- أنوار الربيع في أنواع البديع: ابن معصوم المدني، حققه وترجم لشعرائه: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان – النجف الأشرف – الأولى، ١٣٨٨هـ – ١٩٩٦م.
- الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني، شرح وتعليق وتنقيح: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني – بيروت – السادسة، ١٩٨٥م – ١٤٠٥هـ .
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة: عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب – القاهرة –السابعة عشر: ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م.
- بناء الرواية: سيزا قاسم، دار التنوير للطباعة والنشر، ١٩٨٥م.
- بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي: حميد لحميداني، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – بدون.
- تاج العروس من جواهر القاموس: المرتضى الزبيدي، تحقيق الجزء المنقول منه: مصطفى حجازي، راجعته لجنة فنية من وزارة الإعلام، مطبعة حكومة الكويت، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.
- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد: الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر– تونس– ١٩٨٤م.
- تحليل الخطاب الروائي: سعيد ياقطين، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء– الثالثة، بدون.

- التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا: المبرد، تقديم وتحقيق: إبراهيم محمد حسن الجمل، مراجعة: محمود سالم، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، بدون.
- تقنيات الوصف في القصة القصيرة السعودية: هيفاء الفريح، نادي الرياض الأدبي – الرياض – الأولى، ٢٠٠٩م.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الأولى، ١٤٢٢هـ .
- جماليات المكان في النقد الأدبي المعاصر: عبد الله أبو هيف، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، مج (٢٧) عدد (١) ٢٠٠٥م.
- حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك: أبو العرفان محمد بن علي الصبان، دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى ١٤١٧ هـ –١٩٩٧م.
- خصائص القصة الإسلامية: مأمون فريز جرار، دار المنارة للنشر والتوزيع – جدة – الأولى، ١٩٨٨م.
- الخصائص: ابن جني، تحقيق: د. محمد علي النجار، دار الكتب العلمية، بدون.
- دراسات في فقه اللغة: د. صبحي صالح، دار العلم للملايين ، الأولى ، ١٣٧٩هـ – ١٩٦٠م.
- دلالات التراكيب: د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة – القاهرة– الثانية، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.
- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني – بالقاهرة – الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
- ديوان أشعار الأمير أبي العباس عبد الله بن المعتز: دراسة وتحقيق: د. محمد بديع شريف، دار المعارف – مصر– بدون.

- ديوان طرفة بن العبد البكري: شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق: درية الخطيب، لطفي الصقال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – الثانية، ٢٠٠٠٠م.
- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: تحقيق وشرح: د. عزيزة فوال بابتي، دار الجيل – بيروت – الأولى، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.
- الزمان والسرد: بول ريكور، ترجمة: فلاح رحيم، راجعه عن الفرنسية: د. جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الأولى، ٢٠٠٦م.
- سرد الآخر، الأنا والآخر عبر اللغة السردية، صلاح الصالح، المركز الثقافي العربي – بيروت – الأولى، ٢٠٠٣م.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: ابن عقيل ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث – القاهرة– دار مصر للطباعة ، سعيد جودة السحار وشركاه، العشرون، ١٩٨٠م.
- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن): شرف الدين بن الحسين بن عبد الله الطيبي، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة المكرمة – الأولى، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب: ابن هشام، ومعه كتاب: منتهى الأدب بتحقيق شرح شذور الذهب: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع – القاهرة – بدون.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ابن رشيق، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل – بيروت – الخامسة، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.
- الفائق في غريب الحديث والأثر: الزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة – لبنان – الثانية، بدون.

- فتح الباري شرح صحيح البخاري : أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة – بيروت – ١٣٧٩هـ.
- في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد: د. عبد الملك المرتاض، عالم المعرفة – الكويت– ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م .
- قاموس السرديات: جيرالد برانس، ترجمة: السيد إمام، ميريت للنشر والمعلومات –القاهرة – الأولى، ٢٠٠٣م .
- كتاب الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلويّ، المكتبة العصرية – بيروت – الأولى، ١٤٢٣ هـ .
- كتاب العين، الخليل بن أحمد، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بدون.
- الكتاب: سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي – القاهرة – الثالثة، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: أبو البقاء العكبري، تحقيق: عدنان درويش ، محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت – بدون.
- الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري: الكرماني، دار إحياء التراث العربي – بيروت– الثانية، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.
- لسان العرب: ابن منظور، اعتنى بتصحيحها: أمين محمد عبد الوهاب، محمد صادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت – الثالثة، ١٤١٩م – ١٩٩٩م.
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: الهروي القاري، دار الفكر – بيروت – الأولى، ١٤٢هـ – ٢٠٠٢م.

- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت – بدون.
- المصطلح السردي: جيرالد برانس، ترجمة: عابد خازندار، مراجعة وتقديم: محمد بدير، المجلس الأعلى للثقافة –القاهرة – الأولى، ٢٠٠٣م.
- مضمرات النص والخطاب، دراسة في عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي: سليمان حسين، منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق – ١٩٩٩م.
- معاني النحو: فاضل صالح السامرائي، شركة العاتك للطباعة والنشر – القاهرة – الثانية، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٠٣م.
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، الثانية، ١٩٨٤م.
- معجم ديوان الأدب: الفراء، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر، مراجعة: دكتور إبراهيم أنيس، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر – القاهرة – ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية – بيروت – ١٤١١هـ ، ١٩٩١م.
- من فنون الأدب المسرحية: د. عبد القادر القط، دار النهضة العربية –بيروت –الأولى، ٢٠٠٩م.
- نظريات السرد الحديثة: والاس مارتن، ترجمة: د. حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨م .

فهرس الموضوعات

المسلسل	الموضوع	رقم الصفحة
١	**المقدمة**	٢٥٧٣
٢	**الفصل الأول:** بلاغة اللازمة السردية وأثرها في تقديم الشخصية وتهيئة المتلقي.	٢٥٧٦
٣	**المبحث الأول:** بلاغة اللازمة السردية نوعًا، وبنيةً، وموقعًا.	٢٥٧٧
٤	**المبحث الثاني:** أبعاد السرد في بنية اللازمة السردية.	٢٥٨١
٥	**الفصل الثاني:** بلاغة التعبير النبوي عن الشخصية السردية.	٢٥٨٥
٦	**المبحث الأول:** البعد المادي ودور البلاغة في تقديمه.	٢٥٨٧
٧	**المبحث الثاني:** البعد الاجتماعي ودور البلاغة في تقديمه.	٢٥٩٢
٨	**المبحث الثالث:** البعد النفسي ودور البلاغة في تقديمه.	٢٥٩٨
٩	**الفصل الثالث:** أثر صورة الشخصية في تشكيل صور العناصر السردية.	٢٦٠٧
١٠	**المبحث الأول:** أثر الشخصية في تشكيل الصورة البلاغية للأحداث السردية.	٢٦٠٨
١١	**المبحث الثاني:** أثر الشخصية في تشكيل الصورة البلاغية للفضاء المكاني والزماني.	٢٦١٤
١٢	**الخاتمة.**	٢٦٢٤
١٣	**فهرس المصادر والمراجع.**	٢٦٢٦
١٤	**فهرس الموضوعات.**	٢٦٣١